# تَفَاوتُ البَيانِ القُرْآني

# بَيْنَ ابنِ سِنَانِ الخَفَاجِي والقَاضِي البَاقِلَّاني

## (عَرْضٌ ودِرَاسَةٌ وتَحْرِيرٌ)


الدكتور

**سعيد بن إسماعيل الهلالي**

الأستاذ المشارك بجامعتيْ الأزهر و أمّ القرى

(الكلية الجامعية بالقنفذة)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾

الإسراء/٨٨

صدق الله العظيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أنزل كتابه برهاناً ونوراً مبيناً، وجعله موعظةً، وشفاءً لما في الصدور، وهدى ورحمة للمؤمنين.

والصّلاة والسّلام على أفصح النّاس لساناً، وأعذبهم منطقاً، وأثبتهم جناناً؛ سيدنا ومولانا محمدٍ، وعلى آله وأصحابه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدّين.

وبعد:

فقد قال جمعٌ من أهل العلم بتفاوت البيان القرآني ؛ تبعاً لاختلاف نظمه؛ ذلك لأنهم نظروا في القرآن الكريم؛ فرأوا فيه نظماً ؛لم يعتمد أكثر من التّعاطف ونسق الجمل، وآخر اعتمد الدّقة والتّفنُّن في التّصوير ؛ فقالوا: إنّ الأوّل أقلُّ بلاغةً من الثّاني، ومن العجيب الغريب أنَّ هذا الرأي يكاد يلقى القبول من أكثر علماء البلاغة المتأخرين.

والحق أن هذا القول قد استوقفني كثيراً، وأزعم أنه يستوقف كلّ مسلمٍ، يؤمن بإعجاز القرآن الكريم ، ويعلم أنّ إعجازه، كان – ولا يزال– في بلاغته، ، التي يُوضع فيها كلُّ حرفٍ بحسابٍ دقيق، وكل كلمة بدقة متناهية، وكل جملة بميزان،بحيث لو نزعتَ منه كلمةً – بل حرفاً–، ثم أدرت لسان العرب كلَّه ، لتبحث عن أخرى تسدّ مسدها ، فلن تجد.

كما أزعم – أيضاً – أنّه يستوقف كُلّ متخصصٍ، تعامل مع القرآن عن قربٍ، ووقف على سمو بلاغته، وهو يدرك أنّ معنى قولهم: "هذه الآية أبلغ من تلك" ، أنّ الأبلغ قد رُوعيت فيه كلّ الاعتبارات المناسبة للمقام، وأنّ البليغة لم تُراعَ فيها كلّ الاعتبارات، وعدم مراعاة كلّ الاعتبارات، معناه عند البلاغيين عجز المتكلم – تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً – عن الوفاء بحق المقام.

وما أفزعني، أنّني وجدتُ بعض المستشرقين، يحاول الطعن على القرآن المجيد، بوحي من هذا القول وبإشارة منه ، وإن لم يقصد القائلون به ذلك ؛ إذ وجدتُ أعجمياً، لا يكاد ينفك عن عجمته ،ولم ينطلق لسانه في العربية انطلاق العاديين من أهلها، ولم يزل محكوماً للعجمة في نطقه وفهمه ، ومع ذلك يحاول هذا الدعيّ أن يتصدّر للحكم وإبداء الرأي في كتاب الله الكريم.

ذلك هو المستشرق اليهوديّ المجري الأصل "اجنتس جُولْدْ تْسِيهر". يقول هذا اليهوديُّ في تنطّع ممقوتٍ وحقدٍ دفينٍ– بعد أنْ ذكر أنّ السّور المكية تمتاز في البلاغة وفنون القول عن السّور المدنية–[١] :"... لكن حميَّة النُّبوة وحدَّتها ،أخذت في عظات المدينة والوحي الذي

---

(١) وهذه شنشةٌ يدأب عليها المستشرقون، ولا علم لهم بوجوه البلاغة، وأساليب الكلام، وقد جاء كلٌّ على حسب مقتضيات الأحوال قرآناً عربياً غير ذي عوج.

جاء بها، تهدأ رويداً رويداً، حيث أخذت البلاغة في هذا الوحي، تصبح ضعيفة شاحبة ،كما أخذ الوحي نفسه يتنزّل إلى مستوى أقل بحكم ماكان يعالجه من موضوعات ومسائل، حتى لقد صار أحياناً في مستوى النثر العادي"(١)

ويقول أيضاً:" ويجب ألا يفوتنا الإشارة إلى أنّ القوّة الخطابية (في القرآن) أخذت تفتر حماستها ،برغم استعمال السّجع في أجزاء القرآن التي نزلت بالمدينة ،كما في الأجزاء الأخرى المكية"(٢)

وخلاصة قول تْسِيهر:

١- أنّ القرآن قد ضعُفت بلاغته حين أخذ ينزل بالمدينة، وهو ما عناه بقوله:" حيث أخذت البلاغة في هذا الوحي تصبح ضعيفةً شاحبةً"

٢- كما أشار إلى أنّ القرآن المكيّ كان على نمط سجع الكهّان.

ومقصده من كلا الأمرين، أن يطعن في إعجاز القرآن، وأن ينفيه عنه، وهو ما رمى إليه بقوله:" لقد قرّر محمدٌ نفسه أنّ القرآن عملٌ معجزٌ ،لا يمكن الإتيان بمثله ، ولذلك ينظر المؤمنون إليه هذه النظرة،

---

(١) راجع العقيدة والشريعة في الإسلام لجولد تسيهر ترجمة وتعليق د محمد يوسف وآخران الطبعة الثانية دار الكتب الحديثة بمصر ص ٢١.

(٢) المرجع السابق ص ٢٢.

ولا يرون فرقاً بين قيمة العناصر المكوّنة له، بل يعتبرونه جميعه معجزة إلهية حُقِّقت بواسطة النّبي، ويرونها أكبر معجزة تدلّ على صدق رسالته الإلهية" [١] ،فهو يعني به أنّ القرآن لا إعجاز فيه، وليس من كلام الله عزوجل ؛ لأنّ محمداً- صلى الله عليه وسلم- هو الذي قرّر أنّه معجزٌ،وأنّه لا يمكن الإتيان بمثله، وأن المؤمنين ينظرون إليه هذه النظرة.[٢]

أرأيت كيف وُظِّف القول بتفاوت البلاغة القرآنية في الطَّعن على القرآن الكريم، والنَيْل من إعجازه ؟!!هذا على الرّغم من أن القائلين بهذا القول من علمائنا الأجلاء لم يقصدوا منه ذلك، وهذا ما جعلني أبحث هذا القول في إطار قضية وليس في إطار شبهة ، تقديراً واحتراماً لمقصد هؤلاء العلماء الذين قالوا به.

و مقصدي من البحث هو الذَّود عن القرآن الكريم والدّفاع عنه، وليس الصيد في الماء العكر، والتسلُّق والصّعود للظهور على أكتاف قممٍ شامخةٍ، قضتْ نحبها في خدمة القرآن الكريم والدّفاع عنه.

---

(١) نفسه ص ٢٢.

(٢) راجع أسلوب القرآن الكريم بين الهداية والإعجاز البياني للدكتور محمد عمر باحاذق ط دار المأمون للتراث بالرياض و بيروت. ط. أولى: ١٤١٤هـ= ١٩٩٤م ص ٣٤١.

فوالله ما بلغنا ربع مدهم ولا نصيف ذلك. رضي الله عنهم جميعاً، وغفر الله لنا ولهم ولكُلّ باحثٍ عن الحقيقة، بمقصدٍ شريفٍ ونيةٍ حسنةٍ، حتى وإن لم يُوفّق في الوصول إلى ما تصبو إليه نفسه، وترنو إليه عينه.

على أنّني كنتُ عازماً على أن أتتبع القضية في تراث أهل العلم قاطبة، لكني حينما بدأتُ، وجدت أنّ الموضوع كبير، وأن القضية خطيرة، ولا يتسع لها بحث مثل هذا، ومن ثَمّ اقتصرتُ على عالِمَيْن فقط:

أحدهما: يُعْتَبر فارس القول بتفاوت البيان القرآنيّ، وهو ابن سنان الخفاجيّ.

والثّاني: يُعْتَبر فارس القول باستواء البيان القرآنيّ، وهو القاضي الباقلانيّ.

على وعدٍ بإكمال الموضوع لاحقاً إن شاء الله وأعان.وأنبه إلى أن اختياري لهذين الرجلين ليس من قبيل الصُّدفة وليس عشوائياً، وإنما هو اختيارٌ مقصودٌ ، قد جعلتُ فيه ابن سنان ممثِّلاً للقائلين بالتّفاوت؛لأنّه أوّلُ من صرح من البلاغيين القدماء بهذا القول، كما أنّه أول من حاول أن يحتجّ له، وأغلب من قال بهذا القول من بعده ، كان يلقيه عاماً وبدون دليل.

وقد جعلت الباقلاني ممثِّلاً للقائلين باستواء البيان القرآني ؛لأنّني لم أجد على طول تاريخ القضية، من أكّد على استواء بلاغة القرآن، وتفاوت بلاغة البشر مثل الباقلاني، فقد أقام كتابه كاملاً على ذلك،و حصر كلّ الأسباب التي من شأنها أن تؤدي إلى التّفاوت، وأكّد على وجودها في القرآن العظيم، ثم بيّن أنّه – على وجودها فيه–، كان بيانه على حدٍّ واحدٍ في الإعجاز والبلاغة ، بينما يتفاوت بيان البشر.

وقد بدأت بابن سنان الخفاجي ( ٤٦٦هـ) على الرّغم من أنّ الباقلاني (٤٠٢هـ) أسبق منه في التّرتيب الزمني؛ وذلك لأنّ القول بالتفاوت أسبق من القول بالاستواء، فالقول بالاستواء جاء رداً على القول بالتّفاوت، وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أنّ القول بالتّفاوت لم يظهر إلا بعد المائتين الأولى والثانية للهجرة، وأول من أثر عنه الرّفض للتّفاوت والقول بالاستواء، هو أبو الحسن الأشعري المتكلم( ت ٣٢٤هـ). [١]

وقد جاء هذا البحث في مقدمة، وتمهيد، وأربعة مباحث، وخاتمة، وثبت بالمصادر والمراجع.

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ج ١٧ ص ٥٣.

فأما المقدّمة: فقد بيّنتُ فيها أهمية الموضوع وخطورته، كما رسمتُ فيها منهج البحث وخطته.

وأما التّمهيد: فقد تحدّثتُ فيه عن:معنى التّفاوت، و بيّنتُ وجوهه في القرآن الكريم،

وأما المبحث الأول: فهو بعُنوان: منشأ القول بتفاوت البيان القرآني.

وقد تحدّثتُ فيه- من وجهة نظري وفهمي للقضية- عن الظُّروف والملابسات التي أدَّت إلى نشأة القول بتفاوت بلاغة القرآن الكريم وفصاحته.

وأما المبحث الثّاني: فهو بعُنوان: ابن سنان الخفاجيّ والقول بتفاوت البيان القرآنيّ "

وقد رصدّتُ في هذا المبحث كُلَّ كلام ابن سنان في القضية بنصه، كما رصدتُ فيه حججه على القول بتفاوت البيان القرآنيّ.

وأما المبحث الثّالث: فكان بعُنوان:" القاضي الباقلانيّ وموقفه من تفاوت البيان القرآني "

وقد ذكرتُ فيه موقف الباقلانيّ من التّفاوت ، كما ذكرتُ حديثه عن استواء البيان القرآني ، ومباينته للبيان البشري في ذلك، مع وجود كُلّ الأسباب التي تُؤدي إلى التّفاوت.

وأماالمبحث الرابع: فهو بعنوان:" هل البيان القرآنيّ مستو أو متفاوت ؟"

وقد درستُ في هذا المبحث حجج الرّجلين بتجرّدٍ، وقمتُ بترجيح ما أراه صحيحاً وبدحض ما أراه منكراً لا يليق بجلال كتاب الله (تباركت أسماؤه)

والخاتمة أودعتها أبرز النتائج التي أسفر عنها البحث.

وبعد ، فإنّي أتوجه إلى الله سبحانه وتعالى بهذا الجهد، وأرجو أن يتقبّله بقبولٍ حسنٍ، وأن يُنبته نباتاً حسناً، وأن يُثيبني على ما فيه من إجادةٍ وصوابٍ، وأن يعفو عني لما فيه من نقصٍ وخطأٍ وزللٍ.

وصلّى الله على سيدنا محمدٍ النبي الأميّ، وعلى آله وصحبه، وسلّم تسليماً كثيراً آمين.

القنفذة– مكة المكرمة– في صباح السبت الموافق ١٤٣١/٢/١هـ= ١٦/ ١/٢٠١٠م.

وكتبه

الدكتور/ سعيد بن إسماعيل الهلالي

الأستاذ المشارك بقسم البلاغة والنقد

في كلية اللغة العربية بالزقازيق جامعة الأزهر الشّريف

التّمهيد:

# التّفاوت

## (معناه – وجوهه في القرآن الكريم)

معناه:

يطلق التّفاوت في لغة العرب على عدّة معانٍ، منها: الاختلاف والاضطراب، يقال : تفاوت الشيئان: أي اختلفا في التّقدير ، ويقال تفاوت الرّجلان: أي تباينا في الفضل والخُلُق واختلفا ، ويقال : تفوّت الشيءُ ، أي: اختلف واضطّرب، ومنه قول الله جل وعلا:﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ﴾[١]، والمعنى : ما ترى في خَلْقه( تعالى) السماء اختلافاً ولا اضطراباً ، وهذا قول قتادة .

---

(١) سورة الملك /٣.

ومنها العَيْب: وهو قول السُّدِّيِّ في تفسير الآية السّابقة ، ويكون معناها عليه : ما ترى في خَلْقه (تعالى) السَّماء من عيبٍ ؛ بحيث يقول النّاظر إليها: لو كان كذا وكذا لكان أحسن. .[١]

ومنها التّباعُد: تقول تفاوت الشّيئان: أي تباعد ما بينهما؛ أيْ لم يُدرِك هذا ذاك، ومنه قوله تعالى في التّنزيل العزيز: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾[٢]

أي لم يسبقوا ما أريد بهم، أو لا يفوتون ما فَزِعوا منه[٣]

و لا يجوز لنا أن نُطلق أياً من هذه المعاني على كتاب الله (جل وعلا) ؛ لأنها تُوحي بالنقص والعيب، وكتاب الله منزه عن ذلك؛ ومن ثمّ

---

(١) المحكم والمحيط الأعظم لابن سيدة تحقيق عبد الحميد هنداوي .ط دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط أولى ٢٠٠٠م ج ٩ ص ٥٤٠، القاموس المحيط للفيروز آبادي ولسان العرب مادة فوت وتاج العروس للزبيدي ط دار الهداية.

(٢) سورة سبأ/ ٥١.

(٣) راجع تهذيب اللغة للأزهري تحقيق محمد عوض مرعب( ط دار إحياء التراث العربي بيروت ط أولى٢٠٠١م) ج ١٤ ص ٢٣٥ ومقاييس اللغة لابن فارس تحقيق عبد السلام محمد هارون (ط دار الجيل بيروت لبنان ط ثانية ١٤٢٠هـ= ١٩٩٩م )ج ٤ ص ٤٥٧ ومختار الصحاح لأبي بكر الرازي تحقيق محمود طاهر( مكتبة لبنان ناشرون ١٤١٥هـ= ١٩٩٥م )ج ١ ص ٢١٥ والمفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني تحقيق محمد سيد كيلاني( ط دار المعرفة بيروت لبنان )ج ١ ص ٣٨٦.

لم نجد أحداً من العلماء قد أراد في وصفه للقرآن بالتّفاوت واحداً منها فضلاً عن جميعها ، إذاً فما الذي أرادُوه من التّفاوت؟

إنّما الذي أرادوه من وصف القرآن الكريم بالتّفاوت، هو:

"تفاضل الآيات والسُّور فيما بينها".

أما الاختلاف والاضطّراب، والتّناقض والتّباعد، فلم يقل به أحدٌ من أعداء القرآن العقلاء فضلاً عن أتباعه؛ وذلك لأنّهم لم يجدوا ما يدعو إلى القول به ، ولو أنّ كفار قريش – وهم أشدّ أعداء الإسلام وأعلمهم ببلاغته– وجدوا مغمزاً واحداً، ينفذون منه إلى الطّعن في القرآن، والنَيْل من بلاغته لما تركوا ذلك ، خصوصاً وأنّ القرآن ظلّ يدعوهم إلى مجاراته والنَّسْج على منواله– ولو بأقصر سورةٍ من مِثْله– مدةً طويلةً ، ويُقرّعهم على التّأخر والتلكُّؤ، وهذا التّحدي مازال قائماً، وسيظل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ولعلّ أقرب تعريف إلى ما ذكرناه من قبل، هو قول الرّاغب الأصفهاني:" والتّفاوت الاختلاف في الأوصاف، كأنّه يفوت وصف أحدهما الآخر أو وصف كلٌّ واحدٍ منهما الآخر"(١)

وإن كنتُ أُفضّل التّعبير بالتّفاضل عمّا نحن فيه؛ لأنّ كلمة

---

(١) المفردات في غريب القرآن تحقيق محمد سيد كيلاني ج ١ص ٣٨٦

"التّفاضل "لا تُوهم بشيءٍ، لا يليق وصف القرآن به، لكنّي حاولتُ أن أُحدّد معنى لكلمة التّفاوت؛لأنّي سأستخدمها لشهرتها و لأنها وردت في كلام أهل العلم ، وقد وصف بعضهم القرآن بها ، و لا يجرؤ أحدٌ على أن يشك في ضمائرهم ولا ذممهم؛ لأنّهم من عدول هذه الأمة وهداتها ؛ وهم ورثة الأنبياء؛ ومن ثمّ حاولتُ أن أحصر معناها في الاختلاف في الوصف ، وهو – تقريباً– قريبٌ من معنى التّفاضل الذي استراحتْ له نفسي ، أما التّفاوت الذي يكون في الذات ، وهو الذي بمعنى الاضطراب والتّناقض أو العيب، أو التّباعُد، فليس مقصوداً ؛ لأنّه لم يقل به أحدٌ– ممن يُعْتَد بقوله– على شيءٍ من القرآن الكريم، وصدق الله إذ يقول: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾(١)

وبهذا نكون قد حدّدنا المراد من كلمة التّفاوت، ونكون قد حصرناه في "تفاضُل الآيات والسُّور فيما بينها"، أوفي" اختلاف الآيات والسّور في الوصف".

وقلتُ "فيما بينها" بدون تحديدٍ للجهة التي يكون فيها التّفاضل ؛

---

(١) سورة الزمر/٢٣

وذلك لأنّ العلماء قد ذكروا جهات أخرى للتّفاوت، خلاف التّفاوت البياني، فهناك التفاوت باعتبار الأجر والثواب، وهناك التفاوت باعتبار المُتحدّث فيه أو عنه، وهناك التفاوت باعتبار التّحدي،لكن أشهر هذه الأنواع هو التّفاوت البياني،وهو الذي طال الأخذ فيه والرّد ؛ و لعل السّبب في ذلك أنّه يصطدم مع قضية هامة ، وهي قضية إعجاز القرآن الكريم، وسوف يكون هذا الضّرب من التّفاوت قضية البحث، وإن كان هذا لا يمنع من أن نُشير إلى بقية وجوه التّفاوت في القرآن حتى يعمّ النّفع.

وجوه التّفاوت في القرآن الكريم

الذي يراجع تراث أهل العلم، الذين تعرّضوا لقضية التّفاوت، بين آيات القرآن وسوره، ويراقب حديثهم، ويمعن فيه، يجد أنّهم ذكروا عدة وجوه للتّفاوت والتّفاضل في القرآن الكريم أستطيع أن أُجملها فيما يأتي:

١- تفاضل في الثّواب والأجر.

٢- تفاضل باعتبار المُتحدّث عنه في الآيات.

٣- تفاضل في التّحدي بالإعجاز.

٤- تفاضل باعتبار بلاغته وإعجازه .

وقد ذكر جُلّ هذه الوجوه شيخ الإسلام ابن تيمية في "مجموع

الفتاوى" في الجزء السّابع عشر (في التّفسير ) ، وكتب عنها قرابة المائة صفحة ، و صال وجال، وجادل وناقش في هذه القضية،وأتى فيها بعلم كثير فليراجعه من أراد المزيد[١] .كما جمعها أيضاً شيخنا العلامة محمود توفيق في كتابه المدخل إلى علم بلاغة العربية[٢].

ونحاول الوقوف مع هذه الوجوه بإيجاز فيما يأتي:

الوجه الأول: تفاضُل باعتبار الأجر والثواب

ذهب جمع من أهل العلم إلى أنّ بعض كلام الله ( سبحانه وتعالى) أفضل من بعض في باب الأجر والثّواب ، واستدلُّوا على ذلك بنصوص من القرآن الكريم والسّنة المُطَهّرة ، وممّا استدلُّوا به قوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٣] ، فقد ذكروا أنّ الله أخبر، أنّه يأتي بخيرٍ منها أو مثلها ، وهذا بيانٌ من الله لكون تلك الآية، قد يأتي بمثلها تارةً ، أو خيرٍ منها أخرى ،فدلّ ذلك على أن الآيات تتماثل تارة وتتفاضل أخرى. [٤]

---

(١) ج١٧ ص ٩ وما بعدها.

(٢) ص ٩٨.

(٣) سورة البقرة /١٠٦.

(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية جمع وترتيب عبد الرحمن بن قاسم (دار عالم الكتب بالرياض) ج ١٧ص ١٠.

كما استدلُّوا بنصوص من السُّنة النَّبويّة؛ تُثبت تفضيل بعض كلام الله على بعض،ومن ذلك أنّه( صلى الله عليه وسلم) أخبر عن (الفاتحة ) أنّه لم ينزل في الكتب الثلاثة مثلها، وأخبر عن سورة ( الإخلاص) أنّها تَعْدِل ثلث القرآن ، وعِدْلُهُا لثلثه، يمنع مساواتها لمقدارها في الحروف .وجعل ( آية الكرسيّ) أعظم آيةٍ في القرآن كما ثبت ذلك في صحيح مسلم أنّ النبي ( صلى الله عليه وسلم ) قال لأُبَيٍّ بن كَعْبٍ "يا أَبَا الْمُنْذِرِ أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ من كِتَابِ اللَّهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟" قال: قلت:الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قال: "يا أَبَا الْمُنْذِرِ أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ من كِتَابِ اللَّهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟" قال:قلت :"الله لَا إِلَهَ إلا هو الْحَيُّ الْقَيُّومُ "قال:"فَضَرَبَ في صَدْرِي "وقال:"والله لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ" [١] ورواه ابن أبي شيبة في مسنده بإسناد مسلم ، وزاد فيه :" والذي نفسي بيده ! إنّ لهذه الآية لساناً وشفتين تُقَدّس الملك عند ساق العرش ". وروى أنّها سيدة آي القرآن .وقال في المُعَوِّذَتين: " لم يُرَ مِثْلَهنّ قط"[٢]

وقد ذكر ابن تيمية أنّ "القول بأنّ كلام الله أفضل من بعض هو المأثور عن السّلف ، وهو الذي عليه أئمة الفقهاء من الطّوائف الأربعة

---

(١) صحيح مسلم تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي (ط دار إحياء التراث العربي بيروت) ج ١ص ٥٥٦.

(٢) مجموع الفتاوى ج ١٧ص ١٠.

وغيرهم". [١]

على أنّ الذين قالوا بتفضيل بعض القرآن على بعض في باب الأجر والثواب ، قد اختلفوا فمنهم من ذهب إلى أنّ هذا التفضيل راجعٌ إلى القرآن في نفسه ( في ألفاظه ومعانيه) ، ومن هؤلاء ا بن تيمية (عليه رحمة الله ) [٢]

ومنهم من ذهب إلى أنّ القرآن في نفسه؛ ليس بعضه خيراً من بعض كالطبري؛ وذلك لأنّه كلام الله، ولا يكون كلام الله بعضه أشرف من بعض؛ فإنّه كله من صفات الله، وصفات الله لا تتفاضل.

وأوّلوا قوله تعالى – أصل استدلال الفريق السّابق– :" نأت بخيرٍ منها" والذي يقضي بأنّ المراد بالخير الفضل ، بأنّ المراد به ليس ذلك إنّما المراد :نأت بخيرٍ منها لكم ، وذلك يرجع إلى أحد أمرين في حقنا : إما سهولة في التّكليف ؛ فهو خيرٌ عاجلٌ ،أو أكثر ثواباً لكونه أثقل وأشق، ويكون نفعاً في الآجل والعاقبة..يقول الطبري:" وغير جائز أن يكون من القرآن شيءٌ خيراً من شيءٍ؛ لأنّ جميعه كلام الله ،ولا يجوز في صفات

---

(١) المصدر نفسه ج ١٧ص ١٣.

(٢) نفسه ج ١٧ص ٤٦

الله تعالى ذكره أن يُقال: بعضها أفضلُ من بعض، وبعضُها خيرٌ من بعض". (١)

و قالوا: إنّ التفضيل راجعٌ إلى عظم أجر قارئ ذلك وجزيل ثوابه، و أن معنى قول من قال: هذه الآية أو السّورة أعظم أو أفضل أنّ الثواب المتعلق بها أكثر.

ونخرج من هذا ،بأنّ الذين قالوا بتفضيل بعض القرآن على بعض، في باب الأجر والثواب، استدلّوا بنصوص من الكتاب والسّنة النبوية لا يستطيع أحدٌ أن ينكرها، ؛ولذا قال ابن تيمية عنه :" وهذا لا ينازع فيه الأشعري وابن الباقلاني،فإن الثّواب مخلوق من مخلوقات الله تعالى، فلا ينازع أحد في أنّ بعضه أفضل من بعض ، إنما النّزاع في نفس كلام الله..." (٢)

فالتّفاضل في الأجر والثّواب لا نزاع فيه.

كما أنّ الذين قالوا بتفضيل بعض كلام الله على بعض في الأجر والثّواب ، ليس فيهم أحدٌ من القائلين بأنّ كلام الله مخلوق- كما يقول ذلك من يقوله من الجهمية والمعتزلة- بل كلّ هؤلاء يقولون :إنّ كلام

---

(١)نفسه ج ١٧ص ٤٧ وراجع تفسير الطبري( ط. دار الكتب العلمية بيروت .ط .رابعة ١٤٢٦هـ=٢٠٠٥م) ج ١ص ٥٢٦.

(٢) نفسه ج ١٧ص ٥٢.

الله غير مخلوق.. (١)

أي أنّ هذا التّفضيل لا علاقة له بالاعتزال.

الوجه الثّاني: تفاضُل باعتبار المُتحدّث عنه أو فيه

من صور التّفاضل التي تعرّض لها علماؤنا الأجلاء ، هي تفاضل القرآن باعتبار المُتحدَّث عنه أو فيه، فذكروا أنّ القرآن يتفاضل باعتبار المُتَحدّث عنه، و ضربوا لذلك مَثَلاً بسورتيْ الإخلاص والمسد؛فإذا كان قوله تعالى " قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ" وقوله و" تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ" يشتركان في أنّهما كلام الله ، فإنّهما متفاضلان من جهة المتكلم فيه المخبر عنه ، فهذا كلام الله الذي يتكلّم به عن نفسه، ، وهذا كلام الله الذي يتكلّم به عن بعض خلقه، ، وهما في هذه الجهة متفاضلان بحسب تفاضل المعنى المقصود بالكلامين.

وممن يُشعر كلامه بهذا الوجه الإمام أبو حامد الغزالي ؛ إذ يقول: لعلك تقول قد توجّه قصدك في هذه التنبيهات إلى تفضيل بعض آيات القرآن على بعض، والكلّ كلام الله ، فكيف يفارق بعضها بعضاً ؟ وكيف يكون بعضها أشرف من بعض؟

فاعلم أنّ نور البصيرة إنْ كان لا يُرشدك إلى الفرْق بين آية

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ج ١٧ ص ٥٤ وما بعدها.

الكرسيّ وآية المداينات، وبيْن سورة الإخلاص وسورة تبت ، وترتاع من اعتقاد الفرق نفسك الخوّارة المستغرقة في التقليد ؛ فقلّد صاحب الشّرع صلوات الله عليه وسلامه .

فهو الذي أُنْزِل عليه القرآنُ، وقد دلّت الأخبارُ على شرْف بعض الآيات، وعلى تضعيف الأجر في بعض السّور المنزّلة؛ فقد قال صلّى الله عليه وسلم:"فاتحة الكتاب أفضل القرآن" وقال صلّى الله عليه وسلم :" آية الكرسي سيّدة آي القرآن" وقال صلّى الله عليه وسلم :" يس قلب القرآن" و" قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ " تَعْدِل ثُلُثَ القرآن" والأخبار الواردة في فضائل قوارع القرآن ، وتخصيص بعض الآيات والسّور بالفضل ، وكثرة الثواب في تلاوتها لا تُحصى.." (١)

فالغزالي – رحمه الله– وإن كان يُنكر التّفاوت البياني في القرآن الكريم(٢) ، إلا أنّ كلامه هنا يُوحي بأنّه يجيز وجهين للتّفاضل في القرآن: الأول في باب الأجر والثّواب.والثّاني :باعتبار المتحدّث عنه.

وجاء الشيخ العزّ بن عبد السلام وأجاز التّفاضل باعتبار المتحدّث عنه؛إذ يقول: القرآن فيه فاضل و مفضول. فالفاضل كآية

---

(١) جواهر القرآن لأبي حامد الغزالي تحقيق محمد رشيد رضا القباني ص ٦٣ . دار إحياء العلوم لبنان ط أولى ١٤٠٤هـ= ١٩٨٥م.

(٢) ذكر السيوطي ذلك في الإتقان ج٤ص١٠٠٩.

الكرسي وأول سورة الحديد وآخر سورة الحشر، فإنّ ذلك كلامُ الله في الله.

والمفضول:كـــ " تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ" و" قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ"ونحو ذلك فإنّ ذلك كلام الله في غير الله. فاكتسى الأول الشّرف من جهتين، واكتسى الثّاني الشّرف من جهة واحدة"(١) .

فكلامُ سُلْطانِ العلماء صريحٌ في أنّ كلام الله (سبحانه) يتفاضل باعتبار المُتَحدّث فيه، ولعل رأيه هنا قد أثّر في رأيه في التّفاوت البياني؛ إذْ قد نَسَب إليه الإمامُ الزركشي قوله بالتّفاوت فيه.(٢)

وأما شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله– فقد وسّع القضية، وذهب إلى أنّ الكلام سواء أكان خبراً أم إنشاءً ، يتفاضل من جهة المتكلم فيه أو عنه، فالخبر يتفاضل باعتبار المُخْبَر عنه و الإنشاء يتفاضل في الأمر والنّهي؛ فبعض المأمورات أفضل من بعض، وبعض المنهيّات شرٌّ من بعضٍ، ثم ذكر أنّ من العلماء – كابن عقيل – من منع هذا التّفاضل ، وقال : إنّ التّفاضل ليس في نفس الإيجاب والتّحريم، لكن في متعلق ذلك، وهو كثرة الثّواب والعقاب ،... ثم استطرد و حكى

---

(١) فوائد مشكل القرآن للعز بن عبد السلام تحقيق الدكتور سيد رضوان علي " الندوي" دار الشروق للنشر والتوزيع والطباعة ط أولى ١٣٨٧هـــ= ١٩٦٧م.ص ٢٦٤.

(٢) البرهان تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم( ط دار المعرفة بيروت ط ثانية) ج ٢ ص ١٢٢.

خلاف العلماء في جواز التفاضل في الأسماء والصّفات. [١]

الوجه الثّالث: تفاضل في التّحدي بالإعجاز

ومما يقع فيه التفاضل أيضاً التّحدّي بالإعجاز؛ وذلك لأنّه لم يكن على مستوى واحدٍ في القرآن كلّه، ولكنّه جاء بتدرّج من الأصعب إلى الأسهل ؛ حيث بدأه الحق( سبحانه وتعالى) بالقرآن الكريم كاملاً، ثم إلى عَشْر سورٍ، ثم إلى سورةٍ واحدةٍ مبالغةً في التّحدي وإظهاراً لعجزهم وإعجاز القرآن.

وليس التّحدّي بالقرآن كاملاً كالتّحدّي بعشر سورٍ، وكذلك ليس التّحدّي بعَشْر سورٍ، كالتّحدّي بسورةٍ واحدةٍ.

فتكاليف التّحدّي بالقرآن، أكثر من تكاليف التّحدّي بعَشْر سورٍ، وتكاليف التّحدّي بعَشْر سورٍ، أكثر من تكاليف التّحدّي بسورةٍ واحدةٍ. و من ثمّ "فليس الإعجاز القائم بالقرآن الكريم كلّه، كمثله مَنْزِلةً في التّحدّي وإظهار العجز الإعجازُ القائمُ في سورةٍ من سوره. وليس الإعجازُ والتّحدّي بسورة البقرة كمِثْله الإعجاز بالكوثر، فكلّما طالت السّورة، كانت تكاليف التّحديّ على العباد أكثر، وهذا لا يخفى".[٢]

---

(١) راجع مجموع الفتاوى ج١٧ص ٥٨-٥٩ ٦٩. بتصرف.

(٢) رجع المدخل إلى علم بلاغة العربية للدكتور محمود توفيق ص ١١٠.

ولستُ أعني بذلك أنّ الإعجاز يتفاوت في ذاته؛لأنّ الإعجاز والتّحدي بسورة البقرة، كالإعجاز والتّحدي بسورة الكوثر؛ لأنّ الله قد تحدّاهم بمطلق سورة .

إنما أعني أنّه يتفاوت في كمه وتكاليفه، قُلْتُ هذا لأنّني أومن بأنّ الإعجاز في ذاته لا يتفاوت، شأنه شأن البلاغة، فهما على حدٍّ واحدٍ في القرآن كلّه.ولعل هذا هو ما عناه شيخنا الدكتور محمود توفيق ،حينما عقّب على نفيه أن يكون الإعجاز والتّحدي في سورتيْ البقرة و الكوثر واحداً بقوله: " وليس هذا من أنّ سورة البقرة في سياقها وغرضها أبلغ من سورة الكوثر في سياقها وغرضها. كلٌّ قد وفّى السّياق والمقصد كمال حقه".(١)

وثمة أمر آخر يتعلق بالإعجاز ويُصيبه التّفاضل وهو إدراك الإعجاز، فبعضه قد يكون جلياً واضحاً وبعضه قد يَدِقُّ، ولا يكون ظاهراً ، قال الباقلاني – رحمه الله – :" ألا ترى أنّ الإعجاز في بعض السّور والآيات أظهرُ ، وفي بعضها أغمض و أدقّ ؟ !

فلا يفتقر البليغ في النّظر في حال بعضها، إلى تأمُّلٍ كثيرٍ، ولا بحثٍ شديدٍ، حتى يتبيّن له الإعجاز،ويفتقر في بعضها إلى نظرٍ دقيقٍ،

---

(١) المدخل ص ١١٠.

وبحثٍ لطيفٍ، حتى يقع على الجليَّة، ويصل إلى المَطْلب.

ولا يمتنع أن يذهب عليه الوجهُ في بعض السُّور، فيحتاج أن يفزع فيه إلى إجماعٍ، أو توقيفٍ، أو ما علمهُ من عجز العرب قاطبةً عنه "[١]

إذاً، فالتّحدي بالإعجاز متفاوت، ولا إشكال في ذلك، وإدراك الإعجاز متفاوت ولا إشكال في ذلك، أما هو فليس متفاوتاً، وهذا ما تستريح له نفسي.

الوجه الرّابع: تفاضل باعتبار بلاغته وإعجازه:

وهذا الوجه هو الذي اشتدّ فيه عراك العلماء، بين مُؤيِّدٍ ومُعارضٍ، ولعلّ ذلك لارتباط البلاغة بالإعجاز ؛ لأنّ "الإعجاز قد تشابك – بل توحّد– مع البلاغة تشابكاً يستحيل الفصل بينهما، وبهذا يصبح إعجاز القرآن وبلاغة القرآن تعبيراً عن شيءٍ واحدٍ" [٢]

وقد وقف علماؤنا الأجلاء عند بلاغة القرآن وإعجازه؛ فذكر بعضهم أنّ بلاغة القرآن متفاوتةٌ، وأن القرآن فيه البليغ والأبلغ، ومن

---

(١) إعجاز القرآن تحقيق السيد أحمد صقر (ط دار المعارف ط خامسة.) ص ٢٥٥.

(٢) راجع مقتضى الحال بين البلاغة القديمة والنّقد الحديث للدكتور إبراهيم الخولي (ط دار البصائر القاهرة ط أولى ١٤٢٨هـ= ٢٠٠٧م) ص ١٨٠. ص ٤٥٧

هؤلاء ابن سنان الخفاجي( ت٤٦٦هـ)، وابن أبي الإصبع المصري(ت٦٥٤هـ) ، وسعد الدين التفتازاني( ت٧٩٢هـ) ، وعبد الحكيم السيالكوتي ( ت١٠٦٧هـ) وابن يعقوب المغربي (ت١١١٠هـ) ، والشّيخ عبد المتعال الصّعيدي (ت١٣٨٣هـ) وغيرهم.

ومنهم من رفض ذلك رفضاً باتاً ، وذهب إلى استواء القرآن الكريم في فصاحته وبلاغته واعتبر ذلك وجهاً من وجوه إعجازه ، كالشّيخ أبي الحسن الأشعري( ت٣٢٤هـ)، وأبي بكر الباقلاني (ت٤٠٣هـ) ، وأبي مسلم الأصفهاني (ت ٤٥٩هـ)، والفخر الرازي (ت٦٠٦هـ)، وحازم القَرْطَاجَنِّي (ت٦٨٤هـ) ،والرّافعي (ت١٣٥٦هـ)، والشّيخ محمد عبد الله دراز (ت١٣٧٧هـ) وغيرهم.

وقد ذكر كلُّ فريقٍ حُجَجَه وأدلّته على صحة مسلكه، وسوف نعرض في هذا البحث لحُجَج كلّ فريقٍ وأدلته على ما ذهب وارتضى، ثم ندرسها دراسةً وافيةً؛ لنصل إلى رأي يليق بجلال كلام الله جل وعلا، وتستريح له النّفسُ. وقبل أنْ أدلف إلى دهاليز هذه القضية الخطيرة وخباياها ، أستوقف القارئ الكريم لحظات ؛ لنتعرّف على الظّروف والملابسات التي أدّت إلى نشأة هذه القضية- وهي القول بتفاوت البيان القرآني – ودفعت بعض العلماء إلى القول بها، ومن ثم انبرى لهم فريقٌ آخر يردّ عليهم .

## المبحث الأوّل:

## منشأ القول بتفاوت البيان القرآني

من خلال مراجعتي لتراث أهل العلم – الذي تيسّر لي – تبيّن لي أنّ القول بالتفاضل والتّفاوت في بيان القرآن، لم يُشتهر إلا في القرن الثّالث الهجري ، وذلك بعدما أظهرت الجهمية والمعتزلة القول بأنّ القرآن مخلوق(١)، وكان في ظني بادئ الأمر – نظراً لظهوره بعد قول المعتزلة– أن القول بالتّفاضل بين آيات القرآن في البلاغة مرتبط بالمعتقد – أعني بالاعتزال– وليس له سبب غيره يرتبط به، وذلك لأنّ المعتزلة ونحوهم كانوا يقولون بأنّ القرآن مخلوقٌ،ومن ثمّ يرون فضل بعضه على بعض، فضل مخلوق على مخلوق ، وتفضيل بعض المخلوقات على بعض لا يُنكره أحد.

ولكنّي بعد مراجعة القضية، وتتبعها في تراث أهل العلم ،وجدت أنّ هذا السبب – وإن ارتبطت القضية به في نشأتها–ليس كلّ شيءٍ فيها ، أو بتعبيرٍ أدق ليس الدّافع الرئيس في القضية ،ولو كان الأمر على خلاف ذلك؛ لماتت القضية بموت المعتزلة وانتهاء دولتهم و صولتهم،

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ج١٧ ص ٥٣.

ولكن الأمر على خلاف ذلك؛ فالقضية موجودة إلى يومنا هذا ، ويقول بها بعض الفضلاء.

و يُؤكد ذلك أيضاً ، أنّ كثيراً ممّن قال بتفاوت بلاغة القرآن ليس من المعتزلة ، وأنّ كثيراً من المعتزلة لم يقل بالتّفاوت .ومن ثمّ فالاعتزال ليس كلّ شيءٍ في القضية، وإنّما هو – فقط– كان أحد الأسباب.

إذاً فهناك عوامل أخرى، وظروف مختلفة ، خلاف الاعتزال ، نشأت في أحضانها هذه القضية ، وقد ساعدت على نموها وبقائها، ،ومن ثمّ رحتُ أبحث عنها ، وكان ممّا وجدته قد ساعد على نشأة هذه القضية وعلى بقائها حتى اليوم، أربعة عوامل – وفيها الاعتزال – :

## ١– القول بتفاوت الثّواب والأجر في القرآن

سبق أن ذكرت أنّ السّنة النبوية، قد جاءت بتفضيل بعض السّور والآيات على بعض، في ثواب التّلاوة أو غيرها ، وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أنّ هذا القول ، هو القول المأثور عن السّلف ، وهو الذي عليه أئمة الفقهاء ،من الطوائف الأربعة وغيرهمٍ." (١)

وقد بيّن شيخنا الدكتور محمود توفيق – وهو محقٌّ في ذلك– أنّ

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ج ١٧ ص ١٣.

القول بتفاوت الثّواب والأجر في القرآن ليس مستنداً – في الحقيقة– للقول بتفاوت البلاغة القرآنية ؛ وذلك لأنّ بلاغة القرآن الكريم هي مناط الإعجاز ، ولو قيل بالتّفاوت فيها لأدى ذلك إلى أنّ هنالك عجزاً في بلوغ ما دنا ونزل في مستوى بلاغته، وهذا لا يليق بالقول: إن مناط إعجازه بلاغته، فإنّ الأولى أن يكون هذا المناط واحداً في درجته ومرتبته.

وما جاء من تفاوت أجر التّلاوة فمرده إلى ما تضمنته الآيات والسّور من المعاني الكُليّة، التي هي أصول عامة للعقيدة أو الشّريعة، وليس لنظم تلك الأصول وصياغتها...

فتبين لك أنّ القول بتفاوت بلاغة القرآن الكريم بمعزل عن القول بتفاوته في الفضل والثواب. (١)

وعلى الرّغم من أنّ القول بتفاوت الأجر والثّواب، في القرآن ليس مستنداً في حقيقة الأمر، للقول بتفاوت بلاغة القرآن ، فإنّه– من وجهة نظري– كان سبباً قوياً في القول بالتّفاوت في البلاغة ؛ خصوصاً وأنّه أسبق منه، فهو واردٌ عن النّبي – صلى الله عليه وسلم – ، أما

---

(١) المدخل إلى علم بلاغة العربية للدكتور محمود توفيق سعد( على شبكة المعلومات) ص ١١١.

القول بتفاوت البيان القرآني فلم يأت تقريباً إلا في القرن الثّالث الهجري.

ومن ثمّ فإنّ بعض الذين قالوا بتفاوت البيان القرآني توهموه أصلاً لقولهم، واعتبروه سنداً لقضيتهم.

أضف إلى ذلك، أنّ القول بتفاوت القرآن، من حيث المعنى المتحدّث عنه أو فيه، كان أيضاً من الأسباب التي أدّت إلى القول بتفاوت بلاغة القرآن ،خصوصاً وأنّ القائلين به ، ذهبوا إلى أنّ التفاضُل يشمل الألفاظ والمعاني،كما أنّ الذين قالوا به، هم علماء أجلاء كالغزالي والعزّ بن عبد السلام. (١)

إذاً، فالقول بتفاوت الثّواب والأجر في القرآن، وكذلك تفاوت القرآن من حيث المعني المُتحدّث عنه أو فيه ، كانا من الأسباب التي أدّت أو شجّعت على القول بتفاوت البلاغة القرآنية، وإن كنت قد ذكرت أنّ تفاوت الأجر ليس مستنداً للقول بتفاوت البلاغة لاختلاف الاعتبارات المرعيّة.

٢- - الاعتزال

ذكرت سابقاً أنّ القضية ليست مرتبطةً بالاعتقاد ارتباطاً كليّاً،

---

(١) راجع الفتاوى لابن تيمية ج ١٧ ص ٤٩ وما بعدها.

وأن الاعتزال، لم يكن السبب الرئيس، في القول بتفاوت بلاغة القرآن وفصاحته، ودلّلت على ذلك بأنّنا وجدنا من يقول بالتّفاوت، وهو من أهل السّنة. و وجدنا من يقول بعدمه وهو من المعتزلة.

ولكن هذا الكلام لا ينفي صلة الاعتزال بالقضية كليّة، بل كان له صلة بها عند النشأة؛ إذ كان أحد الأسباب التي ساعدت على نشأتها ؛وذلك لأنّ المعتزلة ونحوهم يقولون بخلق القرآن ، والقائلون بأنّه مخلوق، يرون فضلَ بعضِه على بعضٍ ، فضلَ مخلوقٍ على مخلوقٍ ، وتفضيلُ بعض المخلوقات على بعضٍ لا يُنكره أحدٌ.

ومن هنا فقد ربط الباحثون بين الاعتزال وبين القول بتفاوت البلاغة القرآنية عند ابن سنان الخفاجي؛ إذ فرّع على قوله بالصَّرْفَة في الإعجاز القرآني ،القول بتفاوت القرآن في فصاحته(١)

على أن ابن تيمية حينما رفض الرّبط بين الاعتزال، وبين القول بتفاضل بعض القرآن على بعض، في قوله:" وليس الأمر كما ظنوه ، بل سلف الأمة وجمهورها يقولون : إنّ القرآن كلام الله غير مخلوق، وكذلك سائر كلام الله غير مخلوق، ويقولون مع ذلك: إنّ كلام الله

---

(١) راجع حول إعجاز القرآن للدكتور علي العماري ص ٧٤ ، والبلاغة تطور وتاريخ للدكتور شوقي ضيف (ط دار المعارف . ط .سادسة )ص ١٥٦،وكتاب سر ّالفصاحة لابن سنان الخفاجي دراسة وتحليل للدكتور عبد الرازق أبو زيد زايد (مكتبة الشباب ١٩٨٢م) ص ٥٥.

بعضه أفضل من بعض، كما نطق بذلك الكتاب والسّنة، وآثار الصحابة والتّابعين ،من غير خلاف يعرف في ذلك عنهم". [١] إنما كان يقصد التّفاوت في الأجر والثواب.

٣- القول بتفاوت النّظم

وتكلّم علماؤنا (علماء الإعجاز) عن حدّ النّظم، ومستوياته، ودرجاته؛ فذكروا- فيما يتّصل بدرجاته- أنّ النّظم يجيء على طبقات وأنّه متفاوت؛ فيه ما يعلو بعضه بعضاً، وقسّمه الإمام عبد القاهر إلى ثلاثة أقسام:

أ- الطبقة العليا، والنّمط العالي، والباب الأعظم في النّظم.

ب- طبقة وسطى في النّظم .

ج- وهناك طبقة ثالثة دون الطّبقتين .[٢]

وقد أكّد هذا الصنيع في موطن آخر فقال:"وأنّه كما يَفْضُل هناك النظمُ النظمَ ، والتأليفُ التأليفَ، والنسجُ النسجَ، والصياغةُ الصياغةَ ، ثم يَعْظُم الفضلُ ، وتكثُر المَزِيَّةُ، حتى يفوقَ الشيءُ نظيرَه والمجانسَ له

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ج ١٧ ص ٥٤.

(٢) راجع الدلائل تحقيق الشيخ شاكر محمود محمد شاكر .ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب ( مكتبة الأسرة ٢٠٠٠م) ص ٩٣ وما بعدها.

درجاتٍ كثيرةً ،وحتى تتفاوت القِيَمُ التفاوتَ الشديدَ ، كذلك يفضُل بعضُ الكلام بعضاً، ويتقدَّم منه الشيءُ الشيءَ ، ثم يزدادُ فضلُه ذلك ،ويترقّى منزلةً فوق منزلةٍ ، ويعلو مَرْقَباً بعد مَرْقَبٍ ، ويُستَأْنَفُ له غاية بعد غايةٍ، حتى ينتهي إلى حيث تنقطع الأطماع، وتَحْسَرُ الظنون، وتسقطُ القُوَى،وتستوي الأقدامُ في العَجْز"(١)

فكما يفضل هناك النظمُ النظمَ ...كذلك يفضل الكلام بعضه بعضاً حتى تستوي الأقدام في العجز... وهنا يكون الإعجاز، ولم يتكلم الإمام عن تفاوته.

وفي ظني أن هذا السبب هو أخطر الأسباب ،و أنّ هذا الصنيع من الإمام عبد القاهر – وغيره ممن تحدّثوا عن النّظم ومستوياته– قد أوحى لبعض العلماء ، القول بتفاوت البيان القرآني، أو على الأقل زيّنه لهم وشجّعهم عليه؛لأنّهم نظروا في القرآن الكريم ، فوجدوا ضروباً من النّظم ، ضرباً يحتفل بالدّقة والتفنّن في التصوير، وضرباً لا يحتفل بأكثر من التعاطف والنسق، وضرباً ... فظنوا أنّ الأول أبلغ من الثّاني فقالوا بالتفاوت.

وقد أدرك أستاذنا الدكتور محمد نايل العلاقة بين الحديث عن

---

(١) الدلائل ص ٣٥.

تفاوت النّظم وبين القول بتفاوت البيان القرآني ، وأظهر أثر القول الأول في الثاني فقال:

"و أكبر الظّن أن الذين قالوا بتفاوت بلاغة القرآن الكريم تبعاً لتفاوت نظمه، وأن فيه ما يعلو بعضه بعضاً ، وإن كان الجميع معجزاً، إنّما تأثروا برأي عبد القاهر في كلمة الجاحظ ، وبحديثه عن طبقات النّظم والصّياغة؛فقد رأوا في القرآن نظماً لم يعتمد أكثر من التّعاطف ونسق الجمل، وآخر اعتمد الدّقة والتّفنُّن في التّصوير ؛ فقالوا: إنّ الأوّل أقلُّ بلاغةً من الثّاني، ومن العجيب أنَّ هذا الرأي يكاد يلقى الإجماع من علماء البلاغة المتأخرين". (١)

إذاً فالحديث عن ضروب النّظم وصوره، كان سبباً من الأسباب التي شجّعت على القول بتفاوت البيان القرآني ، و أغرت به بعض العلماء.

والحديث عن هذه العلاقة التي ظننتُها، بين القول بتفاوت بلاغة القرآن المجيد، وبين القول بتفاوت نظمه، يدفعني بل يوجب عليّ، أن أجلّي الموقف هنا من هذا القول؛ حتى يكون الأمر جليّاً واضحاً لا

---

(١) راجع نظرية العلاقات أو النظم بين عبد القاهر والنقد الغربي الحديث للدكتور محمد نايل وما بعدها (ط دار الطباعة المحمدية بالأزهر بالقاهرة ١٩٦٤م). ص ٣٣.

غموض فيه ولا إبهام.

هل يتفاوت نظم القرآن، وهل تتفاوت بلاغته بناء على تفاوته؟

إنّنا نُسلّم بأنّ القرآن الكريم يتفاوت نظمه على صورٍ ودرجات، فهناك نظم يحتفل كثيراً بالتفنّن في أدوات التصوير وفي أساليب الصياغة ، وهناك نظم لا يحتفل بذلك كثيراً، وقد أدرك ذلك علماؤنا الأجلاء وأشاروا إليه .

لكنّنا وإنْ كنّا نُسلّم بذلك معهم ، فنحن نخالف أشد الخلاف فيما رتّبه بعضهم عليه من تفاوت بلاغة القرآن، بناء على تفاوت نظمه، نحن نرى أنّ جمال القرآن وروعته وسحره وبلاغته وإعجازه على حدٍّ واحدٍ ، ودرجةٍ واحدةٍ، لا تختلف ولا تتفاوت تبعاً لاختلاف نظمه؛لأنّ إعجازه وبلاغته ليس قائماً على النّظم وحده ؛ حتى تتفاوت بتفاوته، وتجيء درجاتها وفق درجاته، إنّما هو عنصر مهم من عناصر الجمال، وبجانبه عناصر أخرى من عناصر الجمال كاللفظ والمعنى والتصوير وغيرها.

أضف إلى ذلك أنّ البلاغة ليست في أن تأتي بخصائص واعتبارات، لا يقتضيها المقام، ولا يرشحها السياق، ولا يناسبها المعنى والغرض الذي من أجله بُني الكلام.

إنّما البلاغة أن يُلبّي المتكلم متطلبات مقامه، وإشارات سياق كلامه، وطبيعة معناه، وما يناسب غرضه.

ومن هنا "فإن الآيات التي جاءت في معرض التعاطف والتناسُق، لا تقلّ جمالاً في معناها وموقعها، وفي الغرض الذي سِيقت له ، عن تلك التي جاءت دقيقة النّظم ،عجيبة التفنُّن والصوغ.

لنقرأ قول الله تعالى في سورة النبأ: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَاداً۞ وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً۞ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً۞وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً۞ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً۞ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً۞ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً۞ وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً۞ وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاء ثَجَّاجاً۞ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبّاً وَنَبَاتاً۞ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً ﴾(١)

الآيات كما ترى جمل متعاطفة، ومعان متجاورة، ليس فيها من فنون النّظم ما يستوقف النّظر، ولكن هل يستطيع متذوقٌ أن يقول: إنّها أقل روعةً وجمالاً من قوله تعالى في سورة "الليل": ﴿أَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى۞ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى۞ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى۞ وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى۞ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى۞ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾(٢)؛ لأنّها خلت ممّا

---

(١) سورة النبأ/ ٦- ١٦.

(٢) الليل/ ٥-١٠.

اشتملت عليه الثّانية، من دقة التّعادل بين الشّرطين ،ورعاية التّقابل بين أجزاء الصّورتين؟ إنّ أحداً لا يستطيع أن يزعم هذا الزّعم، إلا إذا كان يقيس الجمال بجهاز آليّ، يتحسّس صور التّراكيب، وكمية التصرّف في أجزائها، فأمّا إذا كان معنا ومع النّاس في أنّ المقياس هو الذّوق والأريحية، وما غشى الكلام من الّرونق والطلاوة فلا.

ليس في القرآن ما يعلو بعضه بعضاً في الجمال والبلاغة، ولكن فيه ما يفترق بعضه عن بعض، في صورة النّظم حسب طبيعة المعنى والغرض، وكلّ في الدّرجة التي ليس وراءها مطمع، في حسن العرض ،وجمال النسق، وروعة الأداء، وكمال التّأثير، ولهذا قال عنه الأوّل :" إنّ له لحلاوة وإنّ عليه لطلاوة ، فلم يقل: إنّه عجيب الصّنع دقيق النسج".(١)

## ٤- حديث البلاغيين عن طبقات البلاغة:

والسبب الرابع من الأسباب التي دفعت بعض العلماء، إلى القول بتفاوت بلاغة القرآن، هو حديث البلاغيين المتأخرين عن طرفيْ البلاغة، وأكاد أجزم بأنّ هذا السّبب، هو السّبب المباشر، الذي أوقع جُلّ المتأخرين، في إشكال القول بتفاوت البيان القرآني.

---

(١) راجع نظرية العلاقات ص ٤١-٤٢.

وبداية هذه القضية تبدأ من عند أبي يعقوب السّكاكي ، حينما تحدّث عن البلاغة وذكر أنّ لها طرفين؛ فقال:" ولها- أعني البلاغة- طرفان أعلى وأسفل متباينان تبايناً لا يتراءى له نارهما ، وبينهما مراتب، تكاد تفوت الحصر متفاوتة، فمن الأسفل تبتدئ البلاغة، وهو القدر الذي إذا نقص منه شيء، التحقَ ذلك الكلام بما شبّهناه به في صدر الكتاب من أصوات الحيوانات، ثم تأخذ في التزايد متصاعدة إلى أن تبلغ حدّ الإعجاز، وهو الطّرف الأعلى، وما يقرب منه"(١)

وأبو يعقوب متأثرٌ في هذا التقسيم بالرّماني ، الذي قسّم البلاغة إلى طبقات ثلاث: عليا ، وهي طبقة القرآن الكريم ، ودنيا ، وهي أوفى منزلة في كلام النّاس ، ومرتبة بينهما وسطى ، وفيها تتفاوت منازل الشّعراء والمتكلمين(٢)

وواضح من كلام أبي يعقوب أنّ الضمير في:( منه) من قوله:" وما يقرب منه" عائد على الطّرف الأعلى، لا على حدّ الإعجاز، وهذا لا

---

(١) مفتاح العلوم للسكاكي (ط شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ط ثانية ١٤١١هـ=١٩٩٠م). ص ٢٢٧.

(٢) راجع النّكت في إعجاز القرآن للرماني ( ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) تحقيق محمد خلف الله أحمد والدكتور محمد زغلول سلام (ط دار المعارف )ص ٧٥. والإعجاز البلاغي للدكتور محمد أبي موسى( ط وهبة )ص ٨٧.

إشكال فيه؛ لأنّه يكون معناه:

أنّ حدّ الإعجاز، هو الأعلى وما يقرب من الأعلى.

ومعنى حدّ الإعجاز:هو أن يرتقي الكلام في بلاغته إلى أن يخرج عن طوق البشر، ويعجزهم عن معارضته.

وجاء الخطيب القزويني فنقل عبارة السّكاكي ، وأعاد صياغتها فقال:" وللبلاغة طرفان : أعلى، إليه تنتهي، وهو حدّ الإعجاز وما يقرب منه، وأسفل، منه تبتدئ ، وهو ما إذا غُيِّرَ الكلام عنه، إلى ما هو دونه، التحقَ عند البلغاء بأصوات الحيوانات ، وإن كان صحيح الإعراب، وبين الطّرفين مراتب كثيرة متفاوتة"(١)

فالخطيب كما نرى نقل العبارة على نحو آخر؛ إذ أعاد صياغة رأي السّكاكي، لكن هذه الصياغة مُلْبسة ، ومن ثمّ فقد فتحت الباب للبلاغيين المتأخرين للقول بتفاوت البيان القرآني .

توضيح ذلك :أنّ قوله :" وما يقرب منه " يحتمل أن يكون معطوفاً على "حدّ"– الذي هو خبرٌ عن الضمير "هو" ، فيكون الضمير مُخَبراً عنه بأمرين : حدّ الإعجاز ، وما يقرب من حدّ الإعجاز – وهو

---

(١) الإيضاح للخطيب القزويني (مطبوع مع البغية للشيخ عبد المتعال الصعيدي ) (ط مكتبة الآداب ط السابعة عشر ١٤٢٦هـ= ٢٠٠٥م. ) ج ١ ص ٢٨.

الأقرب إلى اللفظ ، فيكون خبراً عن الأعلى.

لكنّ هذا التأويل يَرِدُ عليه أنّ ما يقرب من الأعلى ليس بأعلى، أي ما يقرب من حدّ الإعجاز ليس أعلى لنقصانه عن حدّ الإعجاز.

وإن حاول بعض شرّاح الإيضاح توجيهه بقوله:" إنّ قوله وما يقرب منه عطف على حدّ الإعجاز، والمراد بحدّ الإعجاز البلاغة في أقصر سورة، وبما يقرب منه البلاغة في مقدار آية أو آيتين ؛ فكأنّه قال: ولها طرفان أعلى ، وهو البلاغة القرآنية ، أو المراد بحدّ الإعجاز، كلام يعجز البشر عن الإتيان بمثله، كالقرآن، والقريب من حدّ الإعجاز أن لا يعجز الكلام البشر، ولكن يعجزهم مقدار أقصر سورة عن الإتيان بمثله".[١] لكن السّعد قد استفسده وسمّاه زعماً ، وتبعه الدسوقي في ذلك. [٢]

ويحتمل أن يكون معطوفاً على " هو" ،- والضمير في( منه) عائد إلى أعلى- ويكون حدّ الإعجاز خبراً عنهما فيكون التقدير: وهو أيْ الأعلى وما يقرب منه كلاهما حدّ الإعجاز ...وهذا هو الموافق لما

---

(١) حاشية الدسوقي – ضمن شروح التلخيص – (ط. دار الكتب العلمية .بيروت .لبنان) ج ١ ص ١٣٩.

(٢) المصدر نفسه وراجع تجريد العلامة البناني على مختصر السعد (ط صبيح ط أولى ١٣٤٧هـ )ج ١ص ١١٤.

في المفتاح. [١] ولما في نهاية الإعجاز للرازي ؛ إذ ذهب أيضاً إلى أنّ الطرف الأعلى وما يقرب منه هو المعجز. [٢]

وبهذا يتضح لنا أنّ القول الأول يفيد أن حدّ الإعجاز، نوعٌ له فردان: الأعلى وما يقرب منه، وهذا القول يفيد أنّ الطرف الأعلى، نوع تحته فردان حد الإعجاز وما يقرب منه.

وعلى هذا القول يكون الإعجاز متفاوتاً،وقد صرّح بذلك شرّاح التلخيص، قال السّعد:" ولا يخفى أنّ بعض الآيات أعلى طبقة من البعض ، وإن كان الجميع مشتركاً في امتناع معارضته"[٣]

وقد عقّب العلّامة اليعقوبي على ذلك بقوله:" وهو صحيحٌ فإن التّنزيل فيه ما هو معناه في البلاغة، وما هو دون ذلك وكلاهما وقع به الإعجاز". [٤]

---

(١) راجع المفتاح ص ٢٢٧و شروح التلخيص- ج ١ ص ١٣٩.

(٢) راجع نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز للرازي تحقيق الدكتور نصر الله حاجي مفتي أوغلى( ط دار صادر .بيروت لبنان ط الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ= ٢٠٠٤م) ص ٣٤و حاشية الدسوقي – ضمن شروح التلخيص- ج ١ ص ١٣٨ .

(٣) المطول . (مطبعة أحمد كامل ١٣٣٠هـ). ص ٣١.

(٤) مواهب الفتاح لابن يعقوب المغربي – ضمن شروح التلخيص- (ط . دار الكتب العلمية بيروت .لبنان) ج ١ص ١٤٠.

كما ارتضى الدّسوقي قول السّعد السابق [١]

وقال الشّيخ عبد المتعال الصّعيدي وهو يشرح قول الخطيب السّابق:" حدّ الإعجاز، منتهاه ؛ لأنّ الحد في اللغة: منتهى الشّيء ، وما يقرب من الإعجاز هو ما دونه، من مراتب الإعجاز؛ لأنّ الحق أنّ القرآن متفاوت الإعجاز، وليست كلّ آياته في درجة واحدة من البلاغة، وبهذا يكون قوله " وما يقرب منه" معطوفاً على " حدّ الإعجاز"، وقيل : إنّه معطوفٌ على قوله" وهو" على معنى أنّ حدّ الإعجاز هو الطّرف الأعلى وما يقرب منه كما قال السّكاكي، ولكن حمل ما هنا عليه، لا يخلو من تكلُّف"[٢]

وهكذا فتح الخطيب باب القول بتفاوت البيان القرآني بعبارته المُلْبِسة، ولو أنّه قال- كما ذهب السكاكي والرازي-: وللبلاغة طرفان:أعلى وأسفل.

الأعلى وما يقرب منه هو حدّ الإعجاز (أي كلاهما معاً حدّ

---

(١) حاشية الدسوقي –ضمن شروح التلخيص- ج ١ ص ١٣٨.

(٢) بغية الإيضاح للشيخ عبد المتعال الصعيدي (ط مكتبة الآداب ط السابعة عشرة ١٤٢٦هـ= ٢٠٠٥م.) ج ١ص ٢٨.

الإعجاز)،والأسفل منه تبتدئ البلاغة[١]،وهو ما إذا غُيّر الكلام عنه إلى ما هو دونه، التحقَ عند البلغاء بأصوات الحيوانات، وإن كان صحيح الإعراب ، وبين الطّرفين مراتب كثيرة متفاوتة- لما فتح الباب للمتأخرين من البلاغيين للقول بتفاوت البلاغة القرآنية، و لكان كلامه مُحَرراً لا يدفع أحداً إلى تأويله ،.فعبارة الخطيب هنا ليست حسنة الدّلالة ؛ لأنّها ملبسة وغير محرّرة.[٢]

وبعد تحديد الأسباب التي أدّت – من وجهة نظري- أو ساعدت على القول بتفاوت بلاغة القرآن، أنطلق إلى تحديد أشهر القائلين بالتفاوت، ورصد حججه في هذا القول ، و أشهر الرّافضين لهذا القول و رصد حججه في ذلك، ومن الله العون والمدد، وعليه التّوكل والاعتماد، ونسأله العصمة من الزّلل.

---

(١) وقد أنكر الفخر الرازي أن يكون الطّرف الأسفل من البلاغة؛لأنّ منزلتها عنده أعلى منه. راجع نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ص ٣٤. والبلاغة العالية(علم المعاني) للشيخ عبد المتعال الصعيدي تحقيق الدكتور عبد القادر حسين.(ط مكتبة الآداب ط ثانية ١٤١١هـ= ١٩٩١م). ص ٢٩.

(٢) راجع المدخل إلى علم بلاغة العرب للدكتور محمود توفيق سعد ص ٩٧.بدون ط ت.

المبحث الثاني:

## ابن سنان الخفاجي

## والقول بتفاوت البيان القرآني

ابن سنان الخفاجي، هو أبو محمد عبد الله بن سعيد بن سنان الخفاجيّ الحلبي الشيعي المعتزلي( ت ٤٢٢- ٤٦٦هـ) تلميذ أبي العلاء المعري، و هو أحد علماء البلاغة؛ في القرن الخامس الهجري ، معاصر للإمام عبد القاهر الجرجاني ، وقد وقع اختياري عليه لأنّه من البلاغيين، والبلاغيون هم أقربُ النّاس إلى هذه القضية، وكلامهم فيها- سواء بالقبول أم بالرفض- يكون له وزنه،أضف إلى ذلك أنّه - حسب علمي-أوّل من صرح بها من البلاغيين القدماء وحاول أن يُعلّل لها ويستدلّ عليها [١].

### كلام ابن سنان في القضية:

يقول – رحمه الله – في كتابه "سر الفصاحة" " فإنْ قيل : كلامكم الماضي يدلّ على أنّ في القرآن ما بعضه أفصح من بعض،

---

(١) وقد أشار إلى ذلك الدكتور نعيم الحمصي. راجع فكرة إعجاز القرآن من البعثة النبوية إلى عصرنا الحاضر للدكتور نعيم الحمصي( ط مؤسسة الرسالة بيروت لبنان ط ثانية ١٤٠٠هـ= ١٩٨٠م ) ص ٨٦، ٩٠.

وفي النّاس من يخالفهم ويأبى ذلك ، فما عندكم فيه ؟

قلنا :أما زيادة بعض القرآن على بعض في الفصاحة؛ فالأمر فيه ظاهرٌ لا يخفى على من علق بطرف من هذه الصّناعة ، وشدا شيئًا يسيرًا[١]، وما زال النّاس يفردون مواضع من القرآن يعجبون منها في البلاغة وحسن التأليف كقوله تعالى :﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاء وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[٢]

وقوله تعالى:﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾[٣].

وقوله تعالى:﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[٤]

وقوله عزوجل:﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾[٥]

---

(١) شدا هنا بمعنى : طلب أو تعلم مقدمات من العلم.

(٢) هود /٤٤

(٣) البقرة / ١٨٧.

(٤) فصلت / ٣٤.

(٥) سبأ/ ٥١

وقوله تعالى:﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَاْ أُولِيْ الأَلْبَابِ ﴾[١]

وأمثال هذا ونظائره كثير.

فلو كانوا يذهبون إلى تساويه في الفصاحة، لم يكن لإفرادهم هذه المواضع المعينة المخصوصة دون غيرها معنى، وإنّما تدخل الشُّبهة في هذا ومثله على الأعاجم من الفقهاء والمتكلمين لجهلهم بهذه الصّناعة، وعدم فهمهم لقوانينها، فإنّ من عجيب أمرهم، أنّ أحدهم إذا حاول ابتياع ثوب أو دابة، وعلم أنّ غيره أَخْبَرُ بذلك الجنس منه، لم يرضَ بمقدار علمه، حتى يرجع إلى من يظن معرفته بالثّياب أو الدّواب ، فيستفتيه ويقبل رأيه ، كلّ ذلك خوفاً من أن يستمر عليه الغبن، في شيءٍ من ماله ، وإذا وصل إلى الكلام في كتاب الله تعالى ووجه إعجازه – ما هو؟ وهل هو صرف العرب عن معارضته أو علوُّه عن كلامهم بفصاحته؟ ، وكان ذلك يحتاج إلى صناعةٍ ،لا يفهمها وعلوم لا يعرف شيئًا منها – لم ير أن يرجع إلى أقوال العلماء بتلك الصناعة، والمهتمين بفهم أسرار تلك العلوم ، بل قال بغير حجة ، وأفتى من غير معرفة ، ورضي أن يُغبنَ عقله ودينه،من الموضع الذي تحرّز فيه ، وأشفق أن يُغبنَ شيئاً من ماله، وليت شعْري أيُّ فرق بين أن يخلُقَ الله وجهين، أحدهما أحسن

---

(١) البقرة /١٧٩.

وأصبح من الآخر ، وبين أن يُحدث كلامين أحدهما أبلغ وأفصح من الآخر؟ وهل من يفرّق بينهما إلا مقترح؟

ثم ليس أحد ممّن ينكر أن يكون بعض القرآن أفصح من ببعض، يمتنع من القطع على أن القرآن في لغته، أفصح من التوراة في لغتها ، والإنجيل في لغته ، والزبور في لغته ؛ لأنّ تلك الكتب عنده لم تكن معجزة لخرقها العادة بالفصاحة ، وإن كان الجميع كلام الله تعالى ، فما المانع من أن يكون بعض كلامه الذي هو القرآن أفصح من بعض ؟حتى تكون آية منه أفصح من آية ، والجميع كلام الله ، كما جاز عنده أن يكون القرآن أفصح من الإنجيل ، وإن كان الجميع كلام الله ، وهذا لا يخفى على محصّل.

فإن قيل: الذي يمنع أن يكون بعض القرآن أفصح من بعض ، القول بأنَّ قدر كل سورة، من قصار سور المفصل منه قد خرق العادة، في الفصاحة بفصاحته، وكان معجزاً لعلوُّه في الفصاحة ، وما كان خارقًا للعادة في الفصاحة لا يكون غيره أفصح منه، قيل: الجواب عن هذا أولًا: أنّ الصحيح أن وجه الإعجاز في القرآن هو صَرْفُ العرب عن معارضته، وأنّ فصاحته قد كانت في مقدورهم لولا الصَّرف، وهذا هو المذهب الذي يعوّل عليه أهل الصّناعة وأرباب هذا العلم، وقد سطَّر عليه من الأدلة ما ليس هذا موضع ذكره ، فالسّؤال على هذا المذهب

ساقطٌ ، ثم لو سلَّم أنّ وجه الإعجاز هو الفصّاحة، لم يمنع أن يكون كلام معجزٌ، يخرق العادة بفصاحته، أفصح من كلام معجز يخرق العادة بفصاحته ، فإنّ نبيًّا لو أظهر اللهُ على يده معجزاً- وهو حمله ألف رطل – لم يمنع أن يظهر على يده ،أو على يد غيره معجزًا آخر- وهو حمل ألفيْ رطل- فيكون المعجز أنّ أحدهما أعظمَ من الآخر، مع كون كلّ واحد منهما معجزاً".(١)

## تحليل كلام ابن سنان:

هذا هو كلام ابن سنان الخفاجيّ عن هذه القضية كاملاً، وقد آثرت أن أنقله- على طوله- كاملاً ؛ لأهميته وخطورته، وليكون وثيقة بيني وبين القارئ ، فإذا اختّل فهمي لكلام الرّجل وتفاوت ، فليفهم منه الصواب ، فربُبّ سامعٍ أوعى من مُبلّغ، والله يعطي من يشاء. وفيما يلي نركّز على عدة محاور في كلامه.

### ١- رأيه ومنبعه:

ونستطيع – بعد قراءة كلامه بإمعان- أن نعرف منه رأيه بوضوحٍ في القضية، فهو يقول بتفاوت البيان القرآني، بصراحة

---

(١) سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي تحقيق داود غطاشة الشّوابكة وما بعدها (ط دار الفكر ناشرون وموزعون عمان الأردن ط أولى ١٤٢٧هـ= ٢٠٠٦م.) ص ٢١٤.

ووضوح، ولعلّ ذلك نابعٌ من القول بالصّرفة في إعجاز القرآن؛ لأنّ ابن سنان يعتقد أنّ القرآن لم يعجز العرب بفصاحته- فقد كان في مقدورهم أن يأتوا بمثله – وإنّما بصرف الله لهم عن معارضته ، ويفيدنا ياقوت الحموي في ترجمته "أبالعلاء المعري" من كتابه " معجم الأدباء" أنّ " ابن سنان " قد ألّف كتاباً في الصَّرفة، زعم فيه أنّ القرآن الكريم لم يخرق العادة بالفصاحة، حتى صار معجزة للنبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، وأنّ كلّ فصيح بليغ قادر على الإتيان بمثله، إلا أنّهم صُرِفوا عن ذلك" [١].وكتابه هذا لا نعرف له وجوداً في خزانة من خزائن المخطوطات. [٢]

## ٢- إنكاره على علماء البلاغة الجهل بذلك:

ويدّعي ابن سنان أنّ هذا التّفاوت لا يخفى على من عنده دراية بمقدمات علم البلاغة، وقد غلّظ القول ، وشدّد النّكير على من يُنكر ذلك ، واتّهمهم بأنّهم من أعاجم الفقهاء والمتكلمين ، وبأنّهم يجهلون صناعة البيان ولا يفهمون قوانينها.

---

(١) معجم الأدباء لياقوت الحموي (ط دار الكتب العلمية بيروت ط أولى ١٤١١هـ= ١٩٩١م )ج١ ص ٤١٤.

(٢) إعجاز القرآن الكريم بالصّرفة للدكتور محمود توفيق سعد( على شبكة المعلومات) ص ٥٠.

كما نَعَى عليهم حرصهم على أمور دنياهم ، وعدم حرصهم على أمور دينهم؛ وذلك أنّ الواحد منهم إذا لم يعلم شيئاً في أمور الدّنيا سأل عنه ؛ حتى لا يُغْبن،وإذا جهل شيئاً يتصل بأمور الدّين ككتاب الله ، فلا يسأل عنه ، ولا يرجع إلى أهل العلم ، وكأنّه يلوح بأنّه عالمٌ بكتاب الله وما يتصل به ، وكان ينبغي على هؤلاء الرّجوع إليه والرّكون إلى رأيه.

## ٣- مفهوم الفصاحة عنده:

ولضبط الأمور ووضعها في نصابها، ينبغي علينا أن نُحدّد المراد من كلمة "الفصاحة" التي جاءت في كلام ابن سنان؛ حتى نكون على بيّنة مما نحن فيه، وحتى تكون أحكامنا مبنيةً على أُسس صحيحة.

ولذا فإنّ كلمة "الفصاحة" التي جاءت في كلام ابن سنان السّابق، واستعملها مرادفة للبلاغة، إنمّا يُعنى منها مفهوم "البلاغة" على اصطلاح المتأخرين، وهذا الاستعمال كان شائعاً عند القدماء؛ إذ كانوا يستعملون" البلاغة" و"الفصاحة" و"البيان" و"البراعة" وكلَّ ما شاكل ذلك مما يُعبَّر به عن فَضْل بعض القائلين على بعض، من حيث نطقوا وتكلَّموا، وأخبروا السامعين عن الأغراض والمقاصد، وراموا أن

يُعْلِمُوهم ما في نفوسهم ؛ ويكشِفُوا لهم عن ضمائر قلوبهم "[١] بمعنى واحد ، وهو" البلاغة" على مراد المتأخرين منها .

قلت: هذا – على وضوحه وشهرته–؛ لأني سأنقل نصاً آخر لابن سنان، بعد هذا النّص، وستأتي فيه كلمة "الفصاحة " ولكن باستعمال آخر لهذه الكلمة، وهو ما هو مراد منها عند المتأخرين من البلاغيين، حيث تكون وصفاً للألفاظ.

## ٤– أدلة ابن سنان على القول بالتّفاوت:

ثم بيّن ابن سنان للبلاغيين أنّه لا غضاضة في أن يكون بعض القرآن أفصح من بعض واستدلّ على قوله هذا بعدة أدلّةٍ نُعدّدها فيما يأتي:

١ – إفراد العلماء لمواضع من القرآن يُعجِّبُون منها في البلاغة وحسن التأليف. وذكر ابن سنان خمس آيات، ثم عقّب عليها بقوله:" فلو كانوا يذهبون إلى تساويه – أي القرآن – في الفصاحة – أي البلاغة – لم يكن لإفرادهم هذه المواضع المعينة المخصوصة دون غيرها معنى.

---

(١) الدلائل ٤٣.

٢- ليت شعري، أيّ فرق بين أن يخلق الله وجهين أحدهما أحسن وأصبح من الآخر، وبين أن يُحدث كلامين، أحدهما أبلغ وأفصح من الآخر؟ وهل من يفرّق بينهما إلا مقترح؟

٣- ليس أحد ممّن ينكر أن يكون بعض القرآن أفصح من بعض، يمتنع من القطع على أنّ القرآن في لغته، أفصح من التّوراة في لغتها، والإنجيل في لغته، والزّبور في لغته؛ لأنّ تلك الكتب عنده لم تكن معجزة لخرقها العادة بالفصاحة، وإن كان الجميع كلام الله تعالى.

فما المانع من أن يكون بعض كلامه، الذي هو القرآن أفصح من بعض؟ حتى تكون آية منه أفصح من آية، والجميع كلام الله، كما جاز عنده أن يكون القرآن أفصح من الإنجيل وإن كان الجميع كلام الله. وهذا لا يخفى على محصل.

٤- فإن قيل: الذي يمنع أن يكون بعض القرآن أفصح من بعض، القول بأنَّ قدر كل سورة من قصار سور المفصل منه قد خرق العادة في الفصاحة بفصاحته، وكان معجزاً لعلوُّه في الفصاحة ، وما كان خارقًا للعادة في الفصاحة لا يكون غيره أفصح منه، قيل: الجواب عن هذا أولًا: أنّ الصّحيح أن وجه الإعجاز في القرآن هو صرف العرب عن معارضته، وأنّ فصاحته قد كانت في مقدورهم لولا الصَّرف، وهذا هو المذهب الذي عليه أهل هذه الصناعة وأرباب هذا العلم ، وقد سطّر

عليه من الأدلة ما ليس هذا موضع ذكره، فالسّؤال على هذا المذهب ساقط.

٥- وعلى التسليم بأن وجه الإعجاز هو الفصاحة لم يمنع أن يكون كلام معجز يخرق العادة بفصاحته، أفصح من كلام معجز يخرق العادة بفصاحته.

فإن نبياً لو أظهر الله على يده معجزاً – وهو حمله ألف رطل- لم يمنع أن يظهر على يده أو يد نبي غيره معجزاً آخر- وهو حمل ألفي رطل- فيكون المعجز أنّ أحدهما أعظم من الآخر مع كون كلّ واحد منهما معجزاً.

تعقيب وإضافة :

هذا هو موقف ابن سنان الخفاجي من القضية وتلك هي أدلته ، وسوف نعود إليه مرة أخرى للنظر في هذا الموقف ، وتلك الأدلة، لدرستها ، والردّ عليها.

ولكن ما أحبّ أنْ أسجله مبدئياً هنا، هو أنّ رأيه في هذه القضية، مرتبطٌ برأيه في الإعجاز، الذي له صلة بالاعتزال؛ فهو يرى أنّ القرآن أعجز العرب بالصَّرف عن معارضته، مع أنّ فصاحته كانت في مقدورهم،" وعنده أنّ القرآن في طبقة كلام العرب من حيث تلاؤم حروفه وتلاؤم ألفاظه، قرّر ذلك عندما عُني بالردّ على الرّماني فيما

ذهب إليه من أنّ التّأليف على ثلاثة أضربٍ: متنافر ، ومتلائم في الطبقة الوسطى، ومتلائم في الطبقة العليا، وأنّ القرآن كلّه من النوع الثّالث، ولا يشركه في ذلك غيره [١]، فيقول في الردّ : " وهذا الذي ذكره غير صحيحٍ ، والقسمة فاسدةٌ، وذلك أنّ التّأليف على ضربين: متنافر ومتلائم . وقد يقع في المتلائم ما بعضه أشد تلاؤماً من بعض...كما يكون من المتنافر ما بعضه أشد في التنافر وأكثر من بعض.". [٢]

ويصوّر ابن سنان حجته ورأيه، في تلاؤم الحروف، في جدال عنيف ، يخلص منه إلى أنّ أسلوب القرآن وأسلوب فصيح كلام العرب متحدان في تلاؤم التأليف، وكلّ منهما- في هذا- في الطبقة العليا،وعلى هذا التعقيد يخلص في نهاية المطاف إلى ما أراد من أن أسلوب القرآن لا يختلف عن أسلوب الفصحاء من العرب،فمعارضتهم كانت ممكنة لولا الصّرفة... [٣]

ونسجل هنا – وهذه في غاية الأهمية- أن ابن سنان لا يذهب

---

(١) النكت في إعجاز القرآن للرماني – ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن – تحقيق محمد خلف الله أحمد والدكتور محمد زغلول سلام ط دار المعارف ط ثالثة. ص ٩٥.

(٢) سر الفصاحة ص ٩٣.

(٣) راجع حول إعجاز القرآن للدكتور علي العماري ص ٧١ وما بعدها. و منهج الزمخشري في تفسير القرآن للدكتور مصطفى الجويني( ط دار المعارف ط ثالثة) ص ٢٠٩.

إلى أنّ القرآن الكريم متفاوتٌ في بلاغته فحسب، ولكنّه يذهب إلى أن القرآن متفاوت في فصاحته، وذلك حينما ذكر أن الكلام ضربان: متنافر ومتلائم ، و أنه قد يقع في المتلائم ما بعضه أشد تلاؤماً من بعض على حسب ما يقع التأليف عليه، كما يكون من المتنافر ما بعضه أشد في التنافر وأكثر من بعض .

ولا فرق بين القرآن وبين فصيح الكلام المختار في هذه القضية.

والفصاحة حينئذ لا تكون مرادفة للبلاغة، ولكنها تكون وصفاً للألفاظ على ما هو مقرر منها عند المتأخرين من البلاغيين. (١) ، وبهذا نضيف بعداً آخر للقضية عند ابن سنان الخفاجي ، وهو أن كلمات القرآن متفاوتة هي الأخرى في الفصاحة.

هذا هو رأي ابن سنان في القضية، وهذه هي أدلته عليه، وسوف نردّ عليها في المبحث الرّابع إن شاء الله.

---

(١) راجع المطول ص ٢٨.

## المبحث الثّالث:

## الباقلاني وموقفه من تفاوت البيان القرآني

مدخل:

ويبدو أنّ القول بتفاوت البيان القرآني، قد أزعج علماء الإعجاز و أفزعهم ، ومن ثمَّ وجدناهم منذ بواكير التّأليف في الإعجاز القرآني ، يتصدّون له، ويرفضونه رفضاً باتاً، ويردّون عليه، بل وجدناهم يعتبرون استواء البيان القرآني وجهاً من وجوه الإعجاز.

وممّا يُذكر في هذا الشأن أنّني لم أجد واحداً من علماء الإعجاز – فيما أعلم – قال بتفاوت بلاغة القرآن، وإنّما وقف جميعهم صفاً واحداً، في وجه هذه المقولة، ينكرونها، ويردّون على حجج أصحابها، ويُبيِّنون خطورتها، على القرآن وعلى القائلين بها، ولعلّ السّر في ذلك ،أنهم تعاملوا مع القرآن عن قرب، كما أنّ اشتغالهم بقضية الإعجاز جعلهم يُدركون خطورة هذا القول.

على أنّني أعني بعلماء الإعجاز، هؤلاء العلماء الذين كتبوا كتباً، أو رسائل في الإعجاز واشتُهروا بذلك، ولستُ أعني كلّ من تحدّث في قضية الإعجاز، لأنّ كل من تحدث في القضية، سواء بالقبول أم بالرفض، إنّما يتكلم في قضية الإعجاز.

وفي الصّفحات القادمة، يحاول البحث أن يعرض وجهة النّظر الأخرى في القضية؛ تمهيداً لعرض الوجهة التي يرتضيها في نهاية المطاف، وسوف يقف مع أشهر العلماء، الذين اشتهروا بين علماء الإعجاز قديماً وحديثاً، برفضهم لهذا القول واعتبارهم الاستواء وجهاً من وجوه الإعجاز وهو:

الباقلاني:

وهو أبو بكر محمد بن الطيّب الباقلاني( ت ٤٠٣هـ) صاحب كتاب" إعجاز القرآن" ، الذي هو أعظم كتابٍ أُلّف في الإعجاز القرآني إلى اليوم، فهو درّة كتب الإعجاز؛ ولذا قال عنه الرّافعي: أجمع المتأخرون من بعده على أنّه بابٌ في الإعجاز على حدة"(١)

و بالنّظر في كتاب الرجل – رحمه الله- يبدو لنا أنّ القول بتفاوت البيان القرآني، كان في ذهنه، وكان يُزعجه إزعاجاً شديداً؛ ولذا رأيناه – في كتابه كلّه – يلحّ على بيان استواء القرآن في فصاحته و بلاغته، ومباينة بيان القرآن في ذلك للبيان البشري، الذي من سمته التفاوت والاختلاف، ويعتبر ذلك وجهاً من وجوه إعجاز القرآن

---

(١)راجع إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي مراجعة درويش الجويدي (ط المكتبة العصرية صيدا بيروت ١٤٢٤.هـ). ص ١٢٨.

وبلاغته.

وقد قام منهج الباقلاني في كتابه القيم على الموازنة بين استواء البيان القرآني وتفاوت البيان البشري، وهذا المنهج ينتهي دائماً عنده بتفوق البيان القرآني واستوائه، وتفاوت البيان البشري واختلافه.

وكأنّ الفكرة الأساسية لسفره القيم، هي بيان استواء بلاغة القرآن وإعجازه على كل المستويات؛ في الألفاظ، والإيقاع، والمعاني، والأغراض، والبيان، والفصل والوصل وغيرها من كل الملامح الأسلوبية والخصائص اللغوية.

والرّجل في سبيل الوصول إلى هذه الفكرة، يجعل البيان البشري مقدمة لها ودليلاً عليها ؛ لأنّنا لن نفهم البيان القرآني إلا إذا فهمنا البيان البشري، ولن يتجلّى لنا استواء البيان القرآني، إلا إذا وضعنا أيدينا على تفاوت البيان البشريّ، وهذا منهجٌ دقيقٌ وُفّق الرجلُ فيه كلّ التّوفيق، وقد سار عليه في كتابه من أوله إلى آخره.

فهو يذكر كُلّ الأسباب والطّرق التي من شأنها أن تؤدي إلى التّفاوت والاختلاف ، ويوازن بين القرآن و بين كلام البشر على أساسها،ويبيّن استواء القرآن وتفاوت كلام البشر.وهو لا يلقي بكلامه مجرداً من الأمثلة، وإنّما يأتي بأمثلة من القرآن، ومن كلام فصحاء العرب؛ ليدلّل على صدق ما يقول، وتراه يدعو المتلقي إلى معرفة ما

يلقيه عليه بنفسه ، ويتودّد له، ويتعطف عليه ويدعو له بالتوفيق ،وسوف نقف على كُلّ ذلك بالتّفصيل من خلال التعمّق في فهم كلام الرجل في الصفحات القادمة.

ولكن ما أُحب أن أُنبّه عليه هنا، هو أنّ الرّجل في كلّ كتابه، يُركّز على استواء بيان القرآن وإعجازه، على كل المستويات؛و لذا فلن أستطيع في هذا البحث المحدود، أن أقف مع كل جهد الرّجل في كتابه، ومن ثمّ فسوف أقتصر على حديثه، عن استواء بيان القرآن وإعجازه، في الفصل الثّالث، عند حديثه عن "جملة وجوه إعجاز القرآن" ، وأرى أنّ في ذلك كفايةً لبيان رأي الباقلاني في القضية ، ومن أراد المزيد في فهم كلام الشيخ فأُغريه بالرجوع إلى"كتاب إعجاز القرآن" للباقلاني وكتاب الدكتور محمد أبي موسى- رفع الله ذكره- " الإعجاز البلاغي"، ففيه الكثيرُ والجليلُ عن جهد الباقلاني.

## استواء البيان القرآني عند الباقلاني :

في الفصل الثّالث من كتاب" إعجاز القرآن"، تحدّث الباقلاني عن "جملة وجوه إعجاز القرآن "، وقد ذكر في الوجه الثّالث:" أنّه بديع النّظم، عجيب التّأليف، متناه في البلاغة، إلى الحدّ الذي يعلم عجز الخلق

عنه". وبدأ يُعدّد وجوه بلاغته، ويُوضّحها، وقد أوصلها إلى عشرة[١]. وكان منهج الباقلاني في عرضه لهذه الوجوه مَبنيّاً- كما ذكرت سابقاً- على المباينة بين بلاغة البشر وبلاغة القرآن الكريم، "وكان منشأ هذا التباين لديه قائماً على فكرة (الاستواء والتفاوت) أي استواء البيان القرآني وتكامله في مقابل تفاوت البيان البشري وتذبذبه بين القوة والضعف"[٢]

ونجمل حديث الباقلاني عن استواء القرآن وتفاوت بلاغة البشر في المحاور الآتية:

## ١- استواء بلاغة القرآن على امتداده و طوله:

بيّن الباقلاني في الوجه الثّاني من وجوه بلاغة الإعجاز – من خلال النظر إلى جملة القرآن- أن القرآن الكريم- على الجملة- مشتملٌ على أعلى البلاغة، وأرفع الفصاحة، وألطف المعاني، وأغزر الفوائد، وأكثر الحكم ، من أوله إلى آخره ، لا يتخلّله فتورٌ أو انقطاعٌ، مع كثرة أغراضه وتنوعها.

---

(١) راجع إعجاز القرآن ص ٤٨وما بعدها.

(٢) مناهج التحليل البلاغي عند علماء الإعجاز للدكتور عبد الله بانقيب (دار كنوز إشبيليا ط أولى ١٤٣٠هـ=٢٠٠٩م )ص ٢٠٣.

بينما نحن في البيان البشري، قد نقع على كلمات معدودة، وألفاظ قليلة، ربما لا تتجاوز الجملة أو الجملتين، فيما نعالجه من خطبة أو رسالة أو قصيدة، ثم يقع بعد ذلك الاختلال، و الاختلاف، والتّعمّل والتَكَلُّف ، والتّجوُّز والتّعسُّف .

فالبيان القرآني نراه كلّه من الغريب النّادر، والطّريف البديع، والدّرر المختارة، ونراه- على كثرته و طوله- متناسباً في الفصاحة والبلاغة، وهو بذلك خارج عن مألوف الكلام، وفائت لقدرات البشر؛ لأنّ الآدمي إن امتدّ كلامه، أصابه الفتور، و وقع فيه التّفاوت، وبان عليه الاختلال. تأمّل قوله:" وقد حصل القرآن- على كثرته وطوله- متناسباً في الفصاحة، على ما وصفه الله تعالى به؛ فقال عزَّ من قائل :﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ (١).

وقوله:﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً﴾ (٢)، فأخبر سبحانه أنّ كلام الآدمي إن امتدّ وقع فيه التفاوت وبان عليه الاختلال"(٣) .

---

(١) الزمر/٢٣.

(٢) النساء/٨٢.

(٣) إعجاز القرآن ص٣٦.

وقد ذكر شيخنا الدكتور محمد أبو موسى أنّ الباقلاني في هذا الكلام يُحدّد العناصر البلاغية الخاصّة بالقرآن، والتي لا يُوجد شيءٌ منها في كلام النّاس ، لأنّها ليست من طبائع النّاس، وليست في طاقاتهم، وغرضه من هذا أن يبيّن أسباب تفرّد نظم القرآن البديع ، وأن ينفي عنه أنفاس البشرية ؛ لأنّ الذي فيه ليس من بلاغة هذه النّفس ؛ لأنّ بلاغتها مهما تفوّقت وتميّزت لا تنفك عنها أحوال الفتور والانقطاع، لأنّها ضربةُ لازبٍ لهذه النّفس. وانصراف الباقلاني إلى البحث عن الشيء الذي ليس من طبع الإنسان، والذي قام عليه بيان القرآن كان ثمرة معالجة عقلية طويلة في هذا الباب".(١)

## ٢- استواء بلاغة القرآن في كل الوجوه (المعاني) التي يتصرّف فيها ويُكرّرها:

والباقلاني يوضّح لنا أيضاً الفرق بين كلام الله سبحانه، الذي لا يختلف في مستواه البياني، وكلام البشر الذي يختلف ويتفاوت، وهو في هذا يتّفق مع الوجه السابق ، إلا أنّه يختلف فيما يوجب الاختلاف والتفاوت.

فهناك بيّن أنّ البيان البشري- قصيدة أم رسالة أم خطبة- لا

---

(١) راجع الإعجاز البلاغي ص ١٨٩.

يمكن أن يُبنى كلُّه على مستوى واحد من البلاغة والبراعة، بل ترى فيه الغريب النّادر والبديع الطّريف، وترى فيه ما دون ذلك، أما كتاب الله فعلى طوله تراه متناسباً في بلاغته وبراعته، و تراه كلَّه على مستوى واحد في البيان؛إذ يكون في الطبقة العليا التي لا يطيقها البشر.

وهنا يبيّن أن من خصائص البيان البشري أنّ لكلّ إنسانٍ ضرباً من ضروب البيان يُبدع فيه ، فإذا ما جاء إلى غيره أصابه الضعف والفتور، ورأيت التّفاوت والاختلاف في شعره، وذلك لأنّ الباب الذي طرقه ليس من أبواب الكلام التي يبدع فيها ويجيد.

فمنهم من يجيد في نمط معين من أنماط الكلام- شعر، نثر، رجز، قصيد-، ومنهم من يبدع في غرض معين من أغراض الكلام تأمّل قوله:

فمن الشّعراء من يجوّد في المدح دون الهجو.

ومنهم من يبرز في الهجو دون المدح.

ومنهم من يسبق في التّقريظ دون التّأبين .

ومنهم من يجود في التّأبين دون التّقريظ.

ومنهم من يغرب في وصف الإبل أو الخيل، أو سير الليل، أو وصف الحرب، أو وصف الروض، أو وصف الخمر، أو الغزل، أو غير ذلك ممّا يشتمل عليه الشّعر ويتناوله الكلام"[١]

و قد بيّن الباقلاني أنّ هذه السّمة لا تقتصر على المبتدئين أو المتوسطين،وإنّما هي عامةٌ تشمل المبرزين المبدعين- البليغ الكامل، والشاعر المُفْلِق، والخطيب المِصْقَع-، كما أنّها ليست خَفِيةً على أحدٍ، وإنّما هي واضحةٌ جليةٌ لكُلّ من له صلة بفنون القول . وقد أكّد ذلك الباقلاني ، فاستدل عليه من الموروث النّقدي عند العرب بقولهم في المثل:أشعر النّاس امرؤ القيس إذا ركب ، والنّابغة إذا رهب،وزهير إذا رغب، والأعشى إذا طرب" .[٢]

فهؤلاء هم شعراء الطّبقة الأولى من الجاهليين -عصر الازدهار الأول في الشّعر العربي- ولكُلٍّ منهم بابٌ من أبواب الكلام يحسن فيه كلامه، فإذا تجاوزه إلى غيره، قصر عنه، ووقف دونه، وبان الاختلاف على شعره، وإذا كان هذا شأن فرسان البيان العربي ، فإنّه فيمن دونهم أظهر وأوضح.

---

(١) إعجاز القرآن ص ٣٦.

(٢) المصدر نفسه ص٣٧.

فزهير بن أبي سلمى- كما قال الأصمعي- لو ضرب على قدميه مائة دَقَلٍ صينيّ ليقول كما قال النّابغة:

فإنّك كالليــل الذي هو مُدْركي وإن خلتُ أنّ المنتأى عنك واسع

لما استطاع أن يقوله.

وامرؤ القيس كما قال الجاحظ- لو عرض لقول عنترة:

وخَلَا الذُّبابُ بها فليس ببارح غَردا كفعلِ الشّارب المترنِّم

هزجاً يحكُّ ذراعَه بذراعِه قَدْح المكِبِّ عَلى الزّنَادِ الأَجذَم

في هذا لافتضح أمره(١)، فلكلٍّ منهم بابٌ يُبدع فيه.

أما النّظم القرآني فإنّه يتصرّف في جميع الوجوه والأغراض على حدّ واحدٍ، في حسن النّظم ، وبديع التّأليف والرّصف، لا تفاوت فيه، ولا تباين، ولا انحطاط عن المنزلة العليا ولا إسفاف فيه إلى الرّتبة الدنيا، فهو مستو في أصل الفصاحة ودرجاتها، تأمّلْه ،تراه في كلّ ما يتصرف فيه "من ذكر قصص ومواعظ واحتجاج، وحكم وأحكام، وإعذار وإنذار، ووعد ووعيد، وتبشير وتخويف، وأوصاف، وتعليم أخلاق كريمة ،وشيم رفيعة ،وسير مأثورة .وغير ذلك من الوجوه التي

---

(١) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن تحقيق محمد خلف الله أحمد والدكتور محمد زغلول ص ١٣٩. وراجع الإعجاز البلاغي ص ٢٠٦.

يشتمل عليها "[١]. وكذلك في آياته الطويلة والقصيرة تراه على درجة واحدة في الإعجاز، لا يختلف ولا يتفاوت.

وهنا أقتنص الحديث من أبي الطّيب الباقلاني – رحمه الله– لأعود على أمرٍ قد ذكرتُه سابقاً، وهو أنّ الإعجاز قد تشابك مع البلاغة تشابكاً يستحيل الفصل بينهما، وأنّه لا يتفاوت شأنه شأن البلاغة ، وإنْ كان بعض الفضلاء قد ذهب إلى تفاوت الإعجاز [٢]، تأمّل قول الباقلاني هنا:" قد تأمّلنا ما يتصرّف إليه وجوه الخطاب، من الآيات الطويلة والقصيرة، فرأينا الإعجاز في جميعها على حدّ واحدٍ لا يختلف".

وذكر الباقلاني أيضاً في غير هذا الفصل في بيان هذا الوجه، أنّ من خصائص البيان البشري أنّ المتكلم في ميدان القصص يخفت بيانه، وتلين عريكته، ويضعف سبكه ؛ وذلك "لأن القصص ليس مجال إبداع الصياغة ، وإن كان مجال دقتها"[٣]. تأمّل كلام الشيخ:" وإن أردتَ أن تتحقّق ما وصفتُ لك، فتأمّلْ شعرَ مَنْ شئتَ من الشّعراء المُفْلِقين :هل تجد كلامه في المديح والغزل والفخر والهجو يجري مجرى كلامه في ذكر القصص ؟

---

(١) إعجاز القرآن ص ٣٧.

(٢) بغية الإيضاح للشيخ عبد المتعال الصعيدي ج١ ص ٢٨.

(٣) الإعجاز البلاغي ص ٢٠٨.

إنّك لتراه إذا جاء إلى وصف وَقْعَةٍ أو نَقْلِ خبرٍ، عَاميّ الكلام ،سُوقِيَّ الخطاب ،مسترسلاً في أمره ،متساهلاً في كلامه، عادلاً عن المألوف من طبعه ،وناكِباً عن المعهود من سَجِيته، فإن اتفق له في قصةٍ كلامٌ جيد، كان قدر ثنتين أو ثلاثة ،وكان ما زاد عليها حشواً، وما تجاوزها لغواً ولا أقول: إنها تخرج من عادته عفواً؛ لأنّه يقصر عن العفو، ويقف دون العُرْف ويتعرّض للرّكاكة"(١)

لكن البيان القرآني تناول القصص تناولاً لا يختلف عن غيره من أنماط التعبير وأغراض الكلام في استواء البيان، ويدعونا أبو الطيب – إنْ أردنا أنّ نقف على ذلك– إلى النّظر في السّور التي تضمنت شيئاً من القصص القرآني فيقول:" ولو عرفتَ قدر قصة موسى وحدّها من سورة الشّعراء، لما طلبت بينة سوها.بل قصةً من قصصه، وهي قوله:﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ (٢) إلى قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ۞ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ۞ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ۞ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ﴾ (٣) حتى قال:﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى

---

(١) إعجاز القرآن ص ١٩٥.

(٢) الشعراء/٥٢

(٣)الشعراء/٥٧-٦٠.

أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ (١)

ثم قصة إبراهيم عليه السلام..... ثم يقول:" فتأمّل آيةً آيةً لتعرفَ الإعجاز، وتتبيّنَ التصرُّفَ البديع ،والتنقّل في الفصول إلى آخر السورة.

ثم رَاعِ المقطعَ العجيب، وهو قوله : ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾(٢)، هل يُحْسِن أحدٌ أن يأتيَ بمثل هذا الوعيد؟ وأن يَنظِم مثل هذا النظم، وأن يَجد مثل هذه النظائر السابقة؟ ويُصادف مثل هذه الكلمات المتقدمة؟(٣).

هذا كلام الباقلاني في الفرق بين البياني القرآني والبيان البشري في تناول القصص ، وقد جلّى لنا أنّ البيان القرآني يكون مستوياً في بلاغته أما البيان البشريّ فإنّه يكون متفاوتاً.

وذكر الباقلاني أيضاً أن البيان البشري عند إعادة ذكر القصة الواحدة، لا يسلم من التكرار والتّفاوت، وذلك لأنّه في المرة الأولى يفرغ الكاتب كل جهده، في تتبع الحدث ونموه، وتصوير الشخصيات، وبناء الصياغة، فإذا ما أعاد ذكر القصة مرة أخرى ضعُف، ولان،

---

(١) الشعراء /٦٣.

(٢) الشعراء /٢٢٧.

(٣) إعجاز القرآن ص ١٩٦.

وكرّر، ومن ثمّ يختلف أسلوبه و يتفاوت.

أما القرآن الكريم فإنّه كرّر القصص أكثر من مرة، بل قل مرات، وهذا مدعاةٌ للتفاوت، لكنّنا رأيناه غير مختلف ولا متفاوت، بل هو على نهاية البلاغة وغاية البراعة، وترى نفسك وأنت تقرأ القصة في مشاهدها المكررة كأنّك تقرأها لأوّل مرةٍ.

وذلك ليس في طاقة البشر؛ لأنّ كلام البشر يتفاوت التّفاوت الكثير عند التّكرار وعند تباين الوجوه واختلاف الأسباب التي يتضمنها.

٣- استواء بلاغة القرآن مع التنوّع والاختلاف والتنقُّل:

والباقلاني في هذا الوجه أيضاً يذكر جهة أخرى، من الجهات التي يُباين فيها البيان القرآني البيان البشري، وغرضه الأصيل من ذلك أن يُؤكد نفي أيّ صفةٍ بشريةٍ عن هذا الكتاب المبارك.

فهو يذكر هنا أنّ التفاوت من خصائص البيان البشري عند ذكر المعاني المتنوعة والمختلفة، و عند التنقّل بينها، يقول رحمه الله:

"كلام الفصحاء يتفاوت تفاوتاً بيِّنًا في الفصل والوصل، والعلوّ والنزول، والتّقريب والتبعيد، وغير ذلك مما ينقسم إليه الخطاب عند

النّظم، ويتصرّف فيه القول عند الضم والجمع" [١]

و إنمّا يتفاوت بيان البشر عند معالجة المعاني المتنوّعة والمختلفة؛ ذلك لأنّ "معالجة المعاني المتنوعة وإفراغها في صياغة تؤلف مختلفها ، وتجمع شاردها ، أمر عضل في بناء الشّعر والأدب، ثم إنّ فقه طريقة تأليف المختلف هو أيضا الأمر العضل، في نقد الشّعر والأدب، وصعوبة هذا الأمر تتزايد بتزايد المعاني وتغازرها ، ثم إنّ الغزارة والتكاثر والتوفّر لا يُرى في كلامٍ كما يُرى في القرآن، وهي على محدوديتها في الشّعر والأدب لم ينج من تعاطيها شاعرٌ ولا أديبٌ.." [٢]

فكثيرٌ من الشّعراء المعدودين قد تفاوت نظمه ، وتدنّى مستواه ، ووُصف بالنقص عند التنقُّل من معنى إلى معنى ، ومن بابٍ إلى بابٍ، حتى إنّ أهل الصّنعة قد اتفقوا على تقصير البحتري- مع شاعريته ، وجودة نظمه ، وحسن وصفه – في الخروج من النّسيب إلى المديح ، وأطبقوا على أنّه لا يحسن التنقل( حسن التخلص) بينهما إلا في القليل ، وهذا كلامه بنصه:" ألا ترى أنّ كثيراً من الشّعراء قد وصف بالنقص عند التنقُّل من معنى إلى غيره، والخروج من باب إلى سواه.حتى إنّ

---

(١) إعجاز القرآن ٣٨.

(٢) الإعجاز البلاغي ص ٢٠٨.

أهل الصّنعة قد اتفقوا على تقصير البحتري، مع جودة نظمه، وحسن وصفه- في الخروج من النّسيب إلى المديح. وأطبقوا على أنّه لا يحسنه، ولا يأتي فيه بشيءٍ، وإنّما اتفق له- في مواضع معدودة - خروج يرتضي وتنقّل يستحسن.

وكذلك يختلف سبيل غيره، عند الخروج من شيءٍ إلى شيءٍ، والتحوّل من بابٍ إلى بابٍ"(١)

أما بيان الكتاب العزيز- لو تأملته- فإنّه على اختلاف معانيه، وما يتصرّف فيه من الوجوه الكثيرة والطرق المتعددة المختلفة، يجعل المختلف كالمؤتلف، والمتباين كالمتناسب، والمتنافر في الأفراد إلى حد الآحاد.

وهذا أمرٌ عجيبٌ، تبين به الفصاحةُ، وتظهر به البلاغةُ، ويخرج معه الكلام عن حد العادة، ويتجاوز العرف.

تأمّل- لتزداد استبصاراً وتتيقن تيقّناً- من الكلام المؤتلف قوله: ﴿ حم۞ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ۞ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (٢).

---

(١) إعجاز القرآن ص ٣٨.

(٢) غافر/١-٣.

أنت قد تدربت الآن بحفظ أسماء الله تعالى وصفاته، فانظر متى وجدت في كلام البشر وخطبهم مثل هذا النظم في هذا القدر، وما بجمع ما تجمع هذه الآية؛ من شريف المعاني، وحسن الفاتحة والخاتمة. ثم اتْلُ ما بعدها من الآي ، واعرفْ وجهَ الخُلوص من شيءٍ إلى شيءٍ: من احتجاج إلى وعيد، ومن إعْذَار إلى إنْذار، ومن فنون من الأمر شتى، مختلفة تَأتَلِفُ بشريف النّظم، ومتباعدة تتقاربُ بعليّ الضم..."[١]

فالقرآن تراه يجمع بين المعاني المتنوعة والمختلفة ويتنقّل بينها على حدٍّ واحدٍ، من الاستواء والتلاحم والتحدُّر ، كما ينتقل من قصةٍ إلى قصةٍ، ومن بابٍ إلى بابٍ، من غير خللٍ يقع في نظم الفصل والوصل، وحتى يُصوّر لك الفصل وصلاً ، ببديع التأليف وبليغ التنزيل.و يخلو تماماً من إعياء الخروج والتنقُّل ، ولا يظهر عليه آثار التكلّف والتعمُّل[٢].

## ٤- استواء بلاغة القرآن واطّرادها مع جدة المعاني وطرافتها.

فالباقلاني قد ذكر سابقاً في الوجه الثّاني أنّ اطّراد البلاغة

---

(١) المصدرنفسه ١٩٧.

(٢) راجع إعجاز القرآن ص ١٩٠-١٩١.

واستواءها مع اختلاف ميادين المعاني ليس من طبع البشر، وإنّما هو من خصائص البيان القرآني.

وهنا يقول شيئاً آخر، وهو أنّ اطّراد البلاغة مع جدة المعاني، وكونها مستحدثة مبتكرة، هو أيضاً ليس من طبع البشر، وإنّما هو من خصائص الإعجاز القرآني.(١)

تأمّل القرآن الكريم، تجده قد تناول موضوعات جديدة غير معهودة، فالأحكام الشرعية بابٌ جديدٌ، والديانة باب جديد، والتوحيد باب جديد، والاحتجاجات في أصل الدين بابٌ جديدٌ، والردّ على الملحدين بابٌ جديدٌ ،وغيرها من الأبواب التي طرقها القرآن الكريم وتتعلق بأحوال الدّنيا والآخرة.

فالمعاني الجديدة في القرآن لا تعدّ.

وإذا ما تأملنا البيان البشري في عصر ما، نجد أنّ المعاني الجديدة التي يضيفها أهل العصر معدودة، ودونك أزهى عصور الأدب العربي وأخصبها وأثراها، وهو العصر الجاهلي ترى حالهم يقول بلسان القائل:

---

(١) راجع المصدر السابق ص ٤٢.و الإعجاز البلاغي ص ٢٢٩.

ما أُرَانَا نَقُولُ إِلَّا رَجِيعًا وَمُعَاداً مِن قَوْلِنَا مَكْرُورَا

هذه واحدة، والأخرى أنّك تجد القرآن، يلبس هذه المعاني الجديدة ألفاظاً بديعة فصيحة، يوافق بعضها بعضاً، في اللطف والبراعة، على الرّغم من أنّ غرابة المعاني وجدتها، قد تكون سبباً للاختلال والتّفاوت ، لكن القرآن يأتي بالعجب ، ويستمرّ هذا الأمر فيه كلّه بتفوّق واستواء واطّراد.

وهذان الأمران- أعني الإتيان بالمعاني الجديدة واستواء البيان في التعبير عنها- متعذران على البشر وممتنعان؛ لأنّ الإتيان بالمعنى الجديد باطّراد، لا تطيقه البشر، كما أن الإتيان باللفظ البارع مع المعنى البارع باطّراد، ليس في طاقتهم، أما تخيّر الألفاظ للمعاني المتداولة المألوفة، فهو أسهل وأقرب من تخير الألفاظ لمعان مبتكرة، وأسباب مؤسسة مستحدثة، يقول الباقلاني:"ألا ترى أنّ الشّاعر المُفْلِق إذا جاء إلى الزهد قصر، والأديب إذا تكلم في بيان الأحكام ،وذكر الحلال والحرام ،لم يكن كلامه على حسب كلامه في غيره، ونظم القرآن لا يتفاوت في شيءٍ، ولا يتباين في أمرٍ، ولا يختل في حال، بل له المثل الأعلى والفضل الأسنى".(١)

---

(١) إعجاز القرآن ص ٢٠٠.

والباقلاني قد وقف مع آيات في الأحكاميات(الحلال والحرام) ، وهي من الأغراض التي يتفاوت فيها البيان البشري- لأنها جديدة – وبيّن لنا استواء بلاغة القرآن فيها، وكان مما وقف معه قوله تعالى:﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللّهُ فَكُلُواْ مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُواْ اسْمَ اللّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾(١). وقد عقّب عليها بقوله: "أنت تجد في هذه الآية من الحكمة والتصرُّف العجيب، والنظم البارع الغريب ، ما يدلّك – إن شئتَ – على الإعجاز، مع هذا الاختيار والإيجاز، فكيف إذ بلغ ذلك آيات ، أو كانت سورة؟" (٢)

ثم قال ونحو هذه الآية قوله: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(٣). وعقّب عليه بقوله:" وكالآية التي بعدها في التوحيد وإثبات النبوة، وكالآيات

---

(١) المائدة /٤.

(٢) إعجاز القرآن ص٢٠٠.

(٣) الأعراف /١٥٧.

الثّلاث في المواريث.أيّ بارع يقدر على جمع أحكام الفرائض في قدرها من الكلام؟، ثم كيف يقدر على ما فيها من بديع النظم؟[١]

ثم ذكر آيات في الاحتجاج وآيات في التوحيد، و طلب من القارئ أن يقيس الكلّ على هذه الآيات التي هي آية في الاستواء.

## ٥-استواء القرآن في بيانه على ضربٍ واحدٍ.

والباقلاني هنا يشير إلى طريقة بناء البيان القرآني المعجز، و مباينة ذلك للبيان البشري ، فالبيان القرآني تراه مستوياً على نمطٍ واحدٍ، من حيث الفصاحة والسهولة، وعذوبة الألفاظ، وقربها، وسخاؤها ووضوحها، خذ أية سورة- على سبيل المثال- من سور القرآن الكريم وتأمّل فيها، وسوف تجد هذا الاستواء مطرداً في السّورة من أولها إلى آخرها بشكل واضح لا يلتبس.

فلن تصادفك في السّورة ألفاظٌ غريبةٌ، مستكرهةٌ ، ولا كلماتٌ حوشيةٌ مستنكرةٌ، كذلك لن تجد فيها كلاماً مبتذلاً، ولا قولاً سفسافاً ، ولن تجد فيها تركيباً قلقاً، ولا كلمة تطلب غير موقعها، ولا صورة تبُطئ بمعناها.

واسمع إلى حديث الرّجل العزْب الفيّاض عن البيان القرآني:" أنّه

---

(١) إعجاز القرآن ص٢٠١

سهَّل سبيله، فهو خارج عن الوحشيّ المستكْرَه، والغريب المستنكَر، وعن الصَّنعة المتكلَّفة. وجعله قريباً إلى الإفهام، يبادِرُ معناه لفظَه إلى القلب، ويُسابق المغزى منه عبارتَه إلى النّفْس. وهو مع ذلك ممتنع المَطْلَب، عسير المتناوَل، غير مُطْمِع مع قربه في نفسه، ولا مُوهِمٍ مع دنوّه في موقعه أن يُقْدَر عليه أو يُظفر به.

فأما الانحطاط عن هذه الرُّتبة إلى رتبة الكلام المبتذَل والقول المسفسف؛ فليس يصحُّ أن تقع فيه فصاحةٌ أو بلاغةٌ؛ فيطلب فيه الممتنع، أو يوضع فيه الإعجاز.

ولكن لو وضع في وحشيّ مستكْرَه، أو غُمر بوجوه الصّنعة، وأطبق بأبواب التعسُّف والتكلُّف _ لكان لقائل أن يقول فيه ويعتذر، أو يعيب ويقرع.

ولكنه أوضح مناره، وقَرَّب منهاجَه ،وسهَّل سبيله، وجعله في ذلك متشابهاً متماثلاً، وبيَّن مع ذلك إعجازهم فيه" (١).

أما البيان البشري فإنّه لا ينفك عن التّفاوت والاختلاف، و مرجع ذلك إلى عدم استواء الكلام على مدرجة واحدة، ترى كلام الفصحاء وشعر البلغاء، لا يسلم من تصرّف في غريبٍ مستنكرٍ، أو وحشيٍّ

---

(١) إعجاز القرآن ص ٤٦.

مستكرهٍ، ومعان مستبعدة، ثم عدولهم إلى كلام مبتذل وضيع، لا يوجد دونه في الرتبة، ثم تحولهم إلى كلام معتدل بين الأمرين.

فاللغة المستوية المتجلّية في البيان القرآني، لا تجدُها في كلامٍ بليغٍ لواحدٍ من البشر مهما علتْ مكانتُه، وإنّما يختلف الكلام ويتلوّن، ويرتفع وينخفض، ويتضح وينغلق، ويستأنس ويستوحش، وهكذا.

تأمّل قوله:" وقد علمتَ أنّ كلام فصحائهم، وشعر بلغائهم لا ينفك من تصرُّفٍ في غريبٍ مستنكَر، أو وحشيٍّ مستكرَه، ومعان مستبعَدة. ثم عدولهم إلى كلامٍ مبتذَلٍ وضيعٍ لا يُوجد دونه في الرّتبة، ثم تحوّلهم إلى كلامٍ معتدلٍ بين الأمرين، متصرّفٍ بيْن المنزلتين".(١)

وقد دعا الباقلاني القارئ إلى التّحقّق من صدق ذلك، بمراجعة قصيدة أمير البيان العربي " امرئ القيس" التي يقول فيها:

*قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ*

ووعده بأنّه سوف يتجلّى له التّفاوت بين ناظريه، و من ثمّ يتأكّد له تفرّدُ الأسلوب القرآني واستواؤه.

وقد وقف الباقلاني في موطن آخر مع القصيدة، وبيّن أنها لا

---

(١) إعجاز القرآن ص ٤٦.

تخرج عن دائرة التفاوت وقال عنها:" وقد بيّنا لك أنّ هذه القصيدة ونظائرها تتفاوت في أبياتها تفاوتاً بيناً في الجودة والرداءة، والسلاسة والانعقاد، والسلامة والانحلال، والتمكّن والاستصعاب، والتسهّل والاسترْسال، والتوحّش والاستكراه، وله شركاء في نظائرها، ومنازعون في محاسنها، ومعارضون في بدائعها، ولا سواءٌ كلامٌ يُنْحَتُ من الصخر تارةً، ويذُوب تارةً، ويتلوَّن تلوُّنَ الْحِرْبَاء، ويختلف اختلاف الأهواء، ويكثر في تصرُّفه اضطرابُه، وتتفاذف به أسبابُه، وبين قول يجري في سَبْكِهِ على نظام، وفي رَصْفِه على مِنْهاج، وفي وضعه على حدّ، وفي صفائه على باب، وفي بَهْجَته ورونقه على طريق، مُخْتَلِفُه مُؤْتَلِف ،ومُؤْتَلفُه مُتَّحِد، ومُتَبَاعِدُه مُتقارِب، وشَارِدُه مُطيع، ومُطيعه شَارِد، وهو على مُتَصَرَّفَاته واحد، لا يُستصعَبُ في حال، ولا يَتَعقَّد في شأن".(١)

وإذا كان الباقلاني قد أثبت هذا التّفاوت، والاختلاف، والتلوّن ، والاضطراب في معلقة امرئ القيس، وهو أمير البيان العربي، ومعلقته نموذجٌ فريدٌ في البيان البشري، فإنّ ذلك يكون أثبتَ عند غيره،وبهذا يكون الباقلاني قد أكّد على استواء البيان القرآني، على كلّ الأسباب التي من شأنها تُؤدي إلى التّفاوت،كما أكّد مباينة هذا الأسلوب للبيان

---

(١) إعجاز القرآن ص ١٨٢.

البشري في أرقى مستوياته وعند أمرائه.

وبعد فهذا جانب من حديث البلاقلاني عن استواء البيان القرآني ، أعتقد أنه يكفي في تصوير وجهة نظره ،في هذه القضية الخطيرة التي تتعلق بكتاب الله في عليائه،وإن كان لا يُغني عن مراجعة كتاب الباقلاني ؛ لأنه زاخرٌ بالكثير عن القضية،و لا أراني مبالغاً إذا قلتُ: إنّ الرّجل أقام كتابه كله على فكرة استواء البيان القرآني ،وتفاوت البيان البشري بكل مستوياته.

والرّجل في سبيل تأصيل ذلك، عرض لنا جانباً من خطب النبي صلى الله علي وسلم وأتى بخطبٍ لغيره من الصحابة الكرام وغيرهم، كما وقف مع قصيدتين من عيون الشّعر العربي ،إحداهما لامرئ القيس وهي معلقته التي يقول فيها:

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبيبٍ ومَنْزِلِ  بِسِقْطِ اللِّوَى بين الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

والأخرى للبحتري وهي أجود شعره، وهي التي يقول في أوّلها:

أَهْلاً بِذلِكُمُ الخَيَالِ المُقْبِلِ  فَعَلَ الذي نَهْوَاهُ أَوْ لمَ يَفْعَلِ

والغرض من كلّ ذلك أنّ يُطلعنا على تفاوت البيان البشري.

كما وقف مع سورة النّمل، وأظهر جانباً من الإعجاز فيها –

لولا الإطالة لذكرته- ثمّ قال للقارئ: "...انظر في آيةٍ آيةٍ، وكلمةٍ كلمةٍ: هل تجدها كما وصفنا: من عجيب النظم، وبديع الرَّصْف؟ فكلّ كلمة لو أُفْرِدَتْ كانت في الجمال غايةً، وفي الدلالة آيةً، فكيف إذا قارنتْها أخواتُها، وضَامّتْها ذواتُها، مما تجري في الحسن مجراها، وتأخذ في معناها؟

ثم من قصةٍ إلى قصةٍ، ومن بابٍ إلى بابٍ، من غير خللٍ يقع في نظم الفصل إلى الفصل، وحتى يُصوِّر لك الفصل وصلاً، ببديع التّأليف، وبليغ التّنزيل"(١).

---

(١) إعجاز القرآن ص ١٩٠.

## المبحث الرّابع:

## هل البيان القرآني مستو أو متفاوت ؟

قبل الجواب عن هذا السّؤال الذي يُعتبر نهاية المطاف وغاية البحث ، نقف مع فارسيْ الرهان في هذا البحث،وهما:ابن سنان الخفاجي وأبو بكر الباقلاني؛لنرى أيّهما كان أسبق في هذا السّباق الذي كان مضماره كتاب الله في عليائه، وبعد ذلك نجيب عن هذا السؤال، بما تستريح له النفس، ويليق بكتاب الله تباركت أسماؤه، كما نتعرض لبعض الأمور التي تُؤكّد هذا الجواب.

### أولاً: ابن سنان:

عرفنا أن ابن سنان يرى بتفاوت البيان القرآني، ويرى بأن القرآن فيه البليغ والأبلغ، وهذه المادة من البلاغة وليست من المبالغة، قلتُ هذا؛ لأنّ كتب التّفسير مليئةٌ بهذه العبارة،وليس المقصود منها ما نعنيه الآن، إنّما المقصود منها المبالغة.

كما يرى ابن سنان أن القرآن فيه الفصيح والأفصح، وأعني بالفصاحة هنا ما يعنيه المتأخرون منها ، وهي أن تكون وصفاً للألفاظ، قلتُ: هذا؛ لأنّ كثيراً ممن قال بتفاوت البيان القرآني ،كان يطلق هذه الكلمة ، ولا يعني منها ما حدّده المتأخرون لها ، وإنّما يعني منها ما

كانت تستعمل فيه عند المتقدمين، وهو أن تكون مرادفة للبلاغة والبراعة.

فهو في معرض ردّه على الرّماني ما ذهب إليه من تقسيمه التّأليف إلى ثلاثة أقسام يُقرّر: أنّ القرآن الكريم ليس من المتلائم في الطبقة العليا وغيره في الطبقة الوسطى،بل إنّه "لا فرق بين القرآن وبين فصيح الكلام المختار في هذه القضية"(١).

ولا يكتفي بهذا، بل يرى أنّ الرجوع إلى الحقّ والاعتماد على حسن الفقه لبيان العربية قاض بأنّ في كلام العرب ما يُضاهي القرآن الكريم في تأليفه، وأنّ القول بعلو القرآن الكريم بلاغة وتأليفاً ينفر عنه من له بالأدب ونقده صلة، وأنّ ادعاء أنّ تأليف القرآن الكريم في الطبقة العليا التي لا تُدْرَك دعوى فاسدة، ومن يقول بها فهو مجرد من أدنى المعرفة بالأدب ونقده،تأمّل قوله:"ومتى رجع الإنسان إلى نفسه، وكان معه أدنى معرفة بالتّأليف المختار، وجد في كلام العرب ما يُضاهي القرآن في تأليفه، ولعل أبا الحسن( الرّماني) يتخيّل أنّ الإعجاز في القرآن لا يتمّ إلا بمثل هذه الدّعوى الفاسدة، والأمر بحمد الله أظهر من أن يُعضده بمثل هذا القول، الذي ينفر عنه كلّ من شدا من الأدب شيئاً،

---

(١) سر الفصاحة ص٩٤.

أو عرف من نقد الكلام طرفاً".[١]

وهذا الكلام من ابن سنان فيه تجنّ كبيرٌ على بلاغة القرآن وبيانه؛ إذ يجعله مُضاهياً لكلام العرب في تألفيه وبلاغته، ولو كان الأمر على ما يقول؛ فما السّر في إشادة الوليد بن المغيرة ببلاغة القرآن إذاً ؟، ولِمَ سَجَدَ مَنْ سَجَدَ لبلاغة القرآن؟

وهؤلاء هم أعلم النّاس ببلاغة القرآن وبلاغة العرب، وأشدّهم إدراكاً لهما؛ ذلك لأنهم من الجيل الذي كانت حضارته في بلاغته وبيانه، ومن الجيل الذي "قد بلغت البلاغة في عهدهم حدّها، وكان فيها فخارهم؛ حتى عُلِّقت السبعُ بباب الكعبة تحدياً بمعارضتها".[٢]

وأما قول ابن سنان إنّ القول بعلو بلاغة القرآن ينفر عنه من له صلة بالأدب ونقده، وأن ادعاء ذلك فاسد ولا يقول به إلا مجردٌ من معرفة الأدب، فهو قول غريب مردود؛ لأنّ الواقع يُكذّبه ؛ إذ قال بعلو بلاغة القرآن فرسان البيان من جيل نزول القرآن، و أجلّة العلماء من بداية التأليف إلى عصر ابن سنان أمثال ابن قتيبة، والجاحظ،و الواسطي وأبي هلال العسكري والباقلاني ومعاصره عبد القاهر الجرجاني.

---

(١) سرّ الفصاحة ص ٩٤. وراجع إعجاز القرآن الكريم بالصّرفة للعلّامة محمود توفيق ص٥٠.

(٢) روح المعاني للألوسي (ط دار الكتب العلمية بيروت ط ثانية ١٤٢٦هـ=٢٠٠٥م )ج ١ص ٣٠.

فهل هؤلاء مجردون من معرفة الأدب ونقد الكلام؟!!

غفر الله لابن سنان ورضي عنه وعن كلّ علمائنا الأجلاء.

وقد عقّب شيخنا الدكتور محمد أبو موسى على قول ابن سنان في (التلاؤم)- الذي ذكرناه سابقاً[١] - بقوله:" وهذا كلام فاسد، والوجه ما قاله أبو الحسن؛ لأنّنا لا نجد في الكلام ما نجده عندما نقرأ سورة من سور القرآن ، ولم يذهب هذا وحده عن ابن سنان ، وإنما ذهب عنه أيضا كل ما يتفوّق به القرآن على بلاغة الناس، ولم ير في أسلوبه شيئاً خارقاً، وإنّما المعجز هو الصّرفة...، ثم أشار إلى أنّنا لو ذهبنا إلى غير هذا المذهب، وقلنا: إن القرآن معجز في بلاغته، فلسنا مضطرين إلى تكلف القول بالتلاؤم؛ لأنّ للبلاغة وجوهاً أخرى كثيرة، من جملتها التلاؤم في الحروف وغيره.

ووجه إنكاره أن يكون التلاؤم في القرآن ظاهراً على غيره، أن ألفاظ القرآن هي ألفاظ العرب فكيف نقول: إن تعديل مزاج الحروف في القرآن يفوق تعديل مزاج الحروف في غيره؟ والألفاظ هنا هي الألفاظ هناك.

---

(١) انظر ص ٣٢ من هذا البحث.

وقد أغمض الأمير ابن سنان عن ذلك الإدراك النفيس الذي هُدِيَ إليه أبو الحسن في تذوقه تلك المقاطع التي تصل الكلمة بالكلمة، ورأى أنه يتولد عند ذلك درجات من التلاؤم، و مذاقات الحروف تتفاوت تفاوتاً شديداً، وترقى مرقباً بعد مرقب حتى تتقطع دونها القوى والقدر"(١).

على أنّ رأي ابن سنان في فصاحة القرآن و بلاغته نابعٌ من رأيه في إعجاز القرآن،فهو يرى أن "وجه إعجاز القرآن صرف العرب عند معارضته ؛بأن سُلبوا الإرادة التي بها كانوا يتمكنون من المعارضة وقت مرامهم ذلك"(٢)، ورأيه في الإعجاز مرتبطٌ باعتزاله، ومن ثمّ فهو يرى أنّ القرآن في طبقة كلام العرب في فصاحته وبلاغته، ويرى أيضا أنّه متفاوت في فصاحته وبلاغته؛ ولذا فرأيه- مع مجافاته للحقيقة- هذا ليس غريباً على ارتباطه بالصّرفة.

إنما الغريبُ المحيّرُ في أمر ابن سنان ذهابُه إلى القول بالصّرفة- وهو الأديب الذّوّاقة والبلاغي الأريب- وعدم إدراكه لبلاغة القرآن وفصاحته وأثرهما، وتسويته بينهما وبين فصاحة العرب وبلاغتهم، وأخيراً قوله- وهو مبنيّ على كل ما سبق- بتفاوت البيان القرآني بلاغةً وفصاحةً.

---

(١) الإعجاز البلاغي ص ١٤٧.

(٢) سرّ الفصاحة ص ٩٤.

## الرّد على أدلّة ابن سنان:

وأرى أنّ من حقّ البحث ومن حقّ ابن سنان أنّ نقف مع الأدلة التي حاول أن يستدلّ بها على دعواه بتفاوت البيان القرآن، دليلاً دليلاً لنردّ عليها، وهي:

الدّليل الأول: وهو إفراد العلماء لمواضع من القرآن يُعجِّبُون منها في البلاغة وحسن التأليف. وذكر ابن سنان خمس آيات، ثم عقّب عليها بقوله:" فلو كانوا يذهبون إلى تساويه – أي القرآن – في الفصاحة – أي البلاغة – لم يكن لإفرادهم هذه المواضع المعينة المخصوصة دون غيرها معنى."

وهذا الدّليل قد قال به أيضاً ابن حزم ( ت ٤٥٦هـ) الذي يذهب إلى القول بتّفاوت بلاغة القرآن بناءً على القول بالصّرفة[١] ولم أجده عند غيرهما. وابن سنان– وكذا ابن حزم– قد غاب عنهما أنّ الإعجاز البلاغي– الذي لا يقولان به – قد يكون ظاهراً في بعض الآيات، وقد يكون دقيقاً في بعضها الآخر؛ لا يدركه إلا أصحاب النّفوس الطّاهرة، والعقول النيرة، والقلوب العامرة، وعلماؤنا الأجلاء حينما يتكلمون عن

---

(١) الفِصَل في الملل والأهواء والنّحل تحقيق الدكتور محمد إبراهيم نصير والدكتور عبد الرحمن عميرة (ط دار الجيل بيروت )ج ٣ ص ٢٧.

الإعجاز، أو وجهٍ من وجوه بلاغة القرآن المعجزة، يستشهدون بهذه الآيات لظهور الإعجاز فيها وتجلّيه، وليس لأنّ غيرها لا يوجد به إعجاز.

الدّليل الثّاني: وهو قوله: ليت شعري، أيّ فرق بين أن يخلق الله وجهين أحدهما أحسن وأصبح من الآخر، وبين أن يُحدِث كلامين، أحدهما أبلغ وأفصح من الآخر؟ وهل من يفرّق بينهما إلا مقترح؟".

وهذا قياسٌ فاسدٌ منه؛ لأمرين:الأوّل: لأنّه جمع بين أمرين متناقضين، ذلك لأنّ اختلاف الوجهين في الخلق آية من آيات الله (جل وعلا) تدل على كمال قدرته، وأما اختلاف كلامه وتفاوته في الفصاحة والبلاغة- بعد تحدّيه النّاس به- يدلّ على العجز، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً .

الثّاني: لأنّ الله سبحانه لم يتحدّ النّاس بالخلق، ولكنّه تحدّاهم ببلاغة القرآن، فله سبحانه أن يخلق الوجهين على ما يشاء ، وأما القرآن الذي تحدّى به، فينبغي أن يكون في القمة والغاية التي لا تُدرَك ،سالماً من نقص كلام البشر، وهو كذلك .

الدّليل الثّالث: قوله ليس أحدٌ ممّن يُنكر أن يكون بعض القرآن أفصح من بعض، يمتنع من القطع على أنّ القرآن في لغته، أفصح من التّوراة في لغتها، والإنجيل في لغته، والزّبور في لغته؛ لأنّ تلك الكتب

عنده لم تكن معجزة لخرقها العادة بالفصاحة، وإن كان الجميع كلام الله تعالى.

فما المانع من أن يكون بعض كلامه، الذي هو القرآن أفصح من بعض؟ حتى تكون آية منه أفصح من آية، والجميع كلام الله، كما جاز عنده أن يكون القرآن أفصح من الإنجيل وإن كان الجميع كلام الله. وهذا لا يخفى على محصل".

وهو هنا ليس متماسكاً ولا ثابتاً؛ لأنّه يسأل ويردّ على نفسه، ولكنّه- لشدة جداله ورغبته في الحجاج- يُبقي على السّؤال ويستمرّ عليه؛ ولو كان واثقاً بما هو عليه، لما حدث منه ذلك، ويبدو – والله أعلم- أن الاعتزال هو سبب هذا الاضطراب ، فهو لأجله يقول بالصّرفة، ولأجل الصّرفة يقول بالتّفاوت.

تأمّل سؤاله: فما المانع من أن يكون بعض كلامه، الذي هو القرآن أفصح من بعض؟ كما جاز عنده أن يكون القرآن أفصح من الإنجيل، وإنْ كان الجميع كلام الله.

وفي أوّل الكلام يقول: لأنّ تلك الكتب عنده لم تكن معجزة لخرقها العادة بالفصاحة"، وهو بهذا أجاب ، فالذي يأبى تفاوت القرآن هو إعجازه، والذي جعل القرآن أفصح من هذه الكتب –مع أنّ الجميع كلام الله- هو الإعجاز.

الدّليل الرّابع: قوله :فإنْ قيل: الذي يمنع أن يكون بعض القرآن أفصح من بعض ، القول بأنَّ قدر كل سورة من قصار سور المفصل منه قد خرق العادة في الفصاحة بفصاحته، وكان معجزاً لعلوُّه في الفصاحة ، وما كان خارقًا للعادة في الفصاحة لا يكون غيره أفصح منه، قيل: الجواب عن هذا أولًا: أنّ الصّحيح أن وجه الإعجاز في القرآن هو صرف العرب عن معارضته، وأنّ فصاحته قد كانت في مقدورهم لولا الصَّرف،، وهذا هو المذهب الذي عليه أهل هذه الصناعة وأرباب هذا العلم ، وقد سطّر عليه من الأدلة ما ليس هذا موضع ذكره، فالسّؤال على هذا المذهب ساقط".

وهو هنا يعترف بجريمته في حق ذوقه وعلمه، ويستدلّ بدليلٍ فاسدٍ عند أجلّة العلماء وهو القول بالصّرفة،و الغريبُ العجيبُ أنّه يدّعي أنّ هذا هو المذهب الحق، الذي عليه أهل هذه الصناعة وأرباب هذا العلم.

ولست أدري أيّ صناعة يقصدها وأيّ علم يريده؟ هل يقصد علم البلاغة ؟ إن كان يقصدها، فإنّه لم يقل بالصّرفة إلا قلة، وهم شواذ.

فابن سنان هنا يقول: للقائلين باستواء بلاغة القرآن، إن كنتم تمنعون التّفاوت لأجل قولكم: إنّ القرآن معجز ببلاغته، وما كان معجزاً

لا يكون متفاوتاً، فإنّ الإعجاز ليس بالبلاغة وإنمّا هو بالصّرفة، وهذا ما عليه أهل العلم.

وهو بهذا كأنه يتّهم العلماء بالجهل أو يتجاهل هو، يكفيه الزّمخشري، وهو من أئمة المعتزلة، وعلى الرّغم من هذا يقول بإعجاز القرآن ببلاغته.

الدّليل الخامس: وهو قوله:"وعلى التّسليم بأنّ وجه الإعجاز هو الفصاحة لم يمنع أن يكون كلام معجز يخرق العادة بفصاحته، أفصح من كلام معجز يخرق العادة بفصاحته.

فإن نبياً لو أظهر الله على يده معجزاً – وهو حمله ألف رطل– لم يمنع أن يظهر على يده أو يد نبي غيره معجزاً آخر– وهو حمل ألفي رطل– فيكون المعجز أنّ أحدهما أعظم من الآخر مع كون كلّ واحد منهما معجزاً".

وهو هنا يستمرّ في حجاجه العقليّ العقيم ، الذي يُوحي بأنّه يُريد أن يلوي عنق الحق لأمرٍ ما في نفسه يؤمن به، و من ثمّ فهو يدافع عنه ،ويريد أن يُجمّله ولو بالباطل ولعلّ هذا الأمر هو القول بالصّرفة.

فهو يقول لمن يرفض التّفاوت لأجل بلاغة القرآن المعجزة: ما الذي يمنع ذلك؟ والله قد يُؤيّد نبياً بحمل ألف رطل، ويُؤيّده مرةً أخرى

أو يُؤيّد نبياً آخر بحمل ألفيْ رطل؛ فيكون المعجز أنّ أحدهم أعظم من الآخر، مع كون كلّ واحد منهما معجزاً.

أقول له التّفاوت فيما ذكرتَه ليس في المعجزة الواحدة ، وإنّما هو بين معجزات ، وهذا لا شيء فيه، فالله جل وعلا يُؤيّد نبياً بشيءٍ، ويؤيده مرّة أخرى بشيءٍ أعظم ممّا سبق، ويُؤيّد نبياً آخر بشيءٍ أعظم مما أُيّد به النبيّ الأوّل . فهذا لا شيء فيه. أما تفاوت بلاغة القرآن فهو في إطار المعجزة الواحدة.

سؤالٌ مشروعٌ وجوابٌ واجبٌ:

لماذا كانت الموازنة بين ابن سنان والقاضي الباقلاني، ولم تكن بين واحدٍ آخر يُؤمن بأنّ إعجاز القرآن في بلاغته ويرى بالتّفاوت؟

وبعد ظهور تهاوي حجج ابن سنان، وأدلّته على قوله بتفاوت البيان القرآني، وظهور ضعف رأيه، و مجافته لذوقه وعلمه- ولعلّ الذي جرّ ه إلى ذلك ،وأوقعه فيه، هو قوله بالصَّرفة-.

يبدو لي أنّك -أعزّك الله- تسأل السّؤال السّابق ، ولك الحق ؛لأنّ ابن سنان ممّن لا يرى إعجاز القرآن في بلاغته، ومن ثمّ فهو يرى

بالتّفاوت ، وكان الأولى في الموازنة أن تكون مع رجل يؤمن بأنّ إعجاز القرآن في بلاغته،ومع هذا يرى بالتّفاوت.

وأجيبك عن هذا بأنّني – حسب علمي- لم أُصادف واحداً من البلاغيين قد احتجّ لرأيه، وحاول أن يُقيم أدلةً على صحته مثل ابن سنان، كما أنّي لم أُصادف واحداً ممّن قال بتفاوت البيان القرآني، على مستوى كُلّ الطّوائف ،قد أتى بأدلّةٍ مثل ابن سنان كثرةً وقوةً .

فابن حزم قد أتى بدليلين:أحدهما: الدّليل الأوّل عند ابن سنان، وقد ألمحتُ إليه.وثانيهما: أنّ هناك آيات لا تعتمد أكثر من التّعاطف والنّسق، وهذا ما يمكن أن نسميه بـــ" تفاوت نظم القرآن"، وقد أشار إلى ذلك الباقلاني- عليه رحمة الله- وردّ عليه[١]، وسوف أقف مع ذلك في نهاية البحث.

والقاضي صدر الدين موهوب الجزري( ت٦٦٥هـــ) أتى بحجة أخرى للقضية، وهي في قوله:" كان مجيء القرآن بغير الأفصح والأملح جميعه؛ لأنّه تحدّاهم بمعارضته على المعتاد، فلو وقع على غير المعتاد لكان ذلك نَمَطاً غير النَّمَط الذي أراده الله عز وجلّ في الإعجاز.

---

(١) إعجاز القرآن ص ٢٠٧.

ولما كان الأمرُ على ما وصفنا جاء القرآن على نهج إنشائهم الخطب والأشعارَ وغيرها، ليحصل لهم التمكّن من المعارضة ثم يعجزوا عنها، فيظهر الفَلَج بالحُجَّة، لأنّهم لو لم يتمكنوا لكان لهم أن يقولوا: قد أتيتَ بما لا قدرة لنا عليه"(١).

وكأنه يرى بأنّ القرآن جاء بالفصيح والأفصح؛ ليكون على سنن العرب في كلامهم، حتى يتحقّق الإعجاز.

وهذه الحجة قد قال بها بعضُ المتأخرين من البلاغيين، وهي أضعف من أن يُردّ عليها ؛ وذلك لأنّ التّفاوت والاختلاف ليس طريقاً من طرائق العرب في الكلام؛ حتى يأتي القرآن به ، إنّما هو عيبٌ من عيوب كلامهم، فكيف يأتي الحق سبحانه به في القرآن، وقد تحدّاهم ببلاغته وفصاحته؟!!!

تأمّل قول شاعرهم:

وشِعْرٍ كَبَعْرِ الكَبْشِ فَرَّقَ بينهُ لِسَانُ دَعيٍّ في القَرِيضِ دَخِيلِ

وقول الآخر:

وبعضُ قَرِيضِ القومِ أوْلادُ عَلَّةٍ يَكُدُّ لِسَانَ النَّاطِقِ المُتَحَفِّظِ

---

(١) البرهان ج٢ ص١٢٢.

فهم يعيبون الشّعر الذي لا يتناسب، ولا يتشابه، ولا يتألّف، ولا يتماثل[١]، ونحن نصف القرآن بأنّه قد أتى بهذا (العيب)؛ حتى يكون على نمط كلامهم؛ ليتحقق الإعجاز،أيّ فهم هذا ؟!!

وعبد الحكيم السيالكوتي(ت١٠٦٧هـ) يذكر أنّ التفاوت إمّا بحسب تفاوت المقامات في البعضين كماً وكيفاً،وإنْ كان كلٌّ منهما مطابقاً لجميع ما يقتضيه الحال،فإنّ هذه المطابقة موجبةٌ لتحقق أصل البلاغة؛ لما عرفت من أنّ البلاغة مطابقة الكلام لجميع ما يقتضيه الحال، لا تفاوت درجاتها، وإما بحسب رعاية الاعتبارات، لا لأنّه تعالى غير قادرٍ، بل لحكمةٍ، مثل أن يكون المخاطب عاجزاً عن فهمه ،كما إذا وجد في بعض الآيات عشرة مقامات مقتضية لعشرة اعتبارات فراعاها كلها، ووجد في بعض آخر عشرة مقامات مقتضية لعشرة اعتبارات، وراعى منهاخمسة، لكن لا لعجزه تعالى عن الخمسة الباقية، بل لحكمة مثل أن المخاطب عاجز عن فهم العشرة، ولا قدرة له إلا على الخمسة،أو الإشارة إلى أن هذه الآيات التي لم يراع فيها الجميع قد

---

(١) راجع إعجاز القرآن للباقلاني ص ٢٠٦، والبيت الأوّل لأبي البيداء الرياحي والبيت الثّاني لخلف الأحمر.

عجزتم عن معارضتها، فما بالكم بما إذا روعيت الجميع؛ فيكون فيه إشارة إلى شدة العجز"[١]

فهو يذكر أنّ التّفاوت يكون بناء على تفاوت المقامات أو الاعتبارات،وهذا التّفاوت ليس لعدم قدرة الله على الإتيان بأعلى طبقة من الكلام،وإنّما لحكمةٍ أخرى، وهي عجز المخاطب عن فهمه.وأرى أنّ هذا الكلام لا أصل له من الصّواب؛ لأنّ المخاطَب بالقرآن قد تحدّاه الله ببلاغته، فكيف يكون عاجزاً، والله قد تحدّاه به؟!

وهذا كلّ ما ذكر- حسب علمي- في قضية تفاوت البيان القرآني من ابن سنان ومن غيره ، وتستطيع من خلال النّظر إليه أن تُدرك جهد ابن سنان في القضية ، وتتحقق من أنّني كنتُ على شبهةٍ من الصّواب حينما وازنت بينه وبين الباقلاني، والله أعلم.

ثانياً: الباقلاني:

---

(١) حاشية عبد الحكيم على المطول. ط. الشّركة الصحافية العثمانية في استانبول-دار سعادات- ص ٦٢. وتقرير الشمس للإنبابي ط مطبعة السعادة بمصرج ١ ص ٣٢٨.

عرفنا أنّ الباقلاني قد عُني في كتابه من أوله إلى آخره بفكرة استواء بلاغة القرآن، على كلّ المستويات، ومع كُلّ الأسباب،وقد وقفتُ مع ما ذكره في "الفصل الثّالث" عن "وجوه الإعجاز"، وتجلّى منه رأيُه في هذه القضية،وقد أجملتُه في خمسة أمور هي:

- ❖ استواء بلاغة القرآن على امتداده وطوله.
- ❖ استواء بلاغة القرآن في كلّ المعاني التي يتصرّف فيها ويُكرّرها.
- ❖ استواء بلاغة القرآن مع التنوّع والاختلاف والتنقّل.
- ❖ استواء بلاغة القرآن واطّرادها مع جدة المعاني وطرافتها.
- ❖ استواء بلاغة القرآن في بيانه على ضربٍ واحدٍ.

وقد اعتبر الباقلاني هذا الاستواء وجهاً من وجوه البلاغة المعجزة، يباين فيه البيان القرآني البيان البشري، الذي يتّصف بالتّفاوت والاختلاف، وقد حاول الباقلاني أن يُظهر ذلك ،من خلال وقوفه مع نماذج كثيرة من البيان القرآني، ونماذج كثيرة لفرسان البيان البشري، ، وأعترف بأنّني قصّرت في تجلية هذا الجانب عند الباقلاني ؛ إذ لم أقف

كثيراً مع النّماذج التي وقف معها؛ ليبيّن استواء بلاغة القرآن وتفاوت بلاغة البشر، وما دفعني إلى ذلك إلا خوف الإطالة.

على كُلّ حالٍ أرى أنّ الباقلاني قد جلّى القضية ببحثها من كلّ جوانبها ، وإحاطته بكُلّ أطرافها ؛ إذ لم يترك صغيراً ولا كبيراً يخدمه في الوصول إلى غايته إلا وقد ألمّ به، وتعرّض له، كما أنّه مثّل لها بكلّ ما يستطيع ؛من البيان القرآني والبيان والبشري، كما وازن بين البيانيْن لبيان استواء الأول وتفاوت الثّاني.

ولذا فإنّ الباقلاني يُعتبر فارس القول باستواء البلاغة القرآنية ، وكتابه يُعتبر درة في هذه القضية، وفي قضية الإعجاز عموماً؛ ومن ثمّ أصبح قِبْلةً لكل مَنْ جاء مِنْ بعده، وقد تأثّر به الكثير.

وقبل أن أنهي الحديث عن الباقلاني أقف مع كلام لأحد الباحثين، يُوازن فيه بين التّفاوت عند "ابن قتيبة" و التّفاوت عند "الباقلاني" ، ويعتبره عند ابن قتيبة مزيّةً ،بينما يعتبره عند الباقلاني مثلبةً ؛ و ذلك حتى لا يهتزّ الموقف الذي انتهى إليه الباقلاني عند أحد ؛ وأعني بالموقف رأيه الذي جعل فيه التّفاوت عيباً نزّه كتاب الله عنه.

يقول الرّجل:"إنّ مفهوم الأسلوب – عند ابن قتيبة– لا يقوم إلا على فكرة التّفاوت من حيث إنّ العرب كانت تُلائم بين الموقف والكلام،أو بيْن القول والمقام، وهي ملاءمةٌ أفضت إلى أنْ تتعدّد عندهم

طرقُ التّعبير في المقام الواحد...فكما أنّ الكلام إذا كان من نَجْرٍ واحدٍ– لون واحد– قلّ أثره، و امّحت فائدتُه، فإنّ القلادةَ– السِّخَاب– كانت ذات جوهر أولم تكن يرتدُّ جمالها إلى أنّ حباتها لا تُنظَم من صنفٍ واحدٍ، فهي تجمع بين الياقوت والمرجان، والعقيق والعقيان، فسرّ جمالها في تفاوت حباتها من حيث القيمة،ومن حيث الحجم واللون،من هنا فإنّ الكلام يزداد جمالاً وتأثيراً إذا كان متفاوتاً، لا من لونٍ واحدٍ من حيث المفردات، ولا من واد واحد من حيث التراكيب،وإنّما هو من جماع ألوان متعددة، وتراكيب عديدة . وعلى هذا فإن التّفاوت في النّص دليل غناه وثرائه، وعليه فإنّ فكرة التّفاوت عند ابن قتيبة قرينة مفهوم الأسلوب، ولا يمكن أن تكون مثلبةً من مثالبه، كما هي عند الباقلاني"[١].

وبعد قراءة هذا الكلام، يتضح لنا أنّه ليس به تناقضٌ، وليس به خلطٌ ؛كما أنّه لا يمس موقف الباقلاني، لا من قريب ولا من بعيد؛ذلك لأنّ الباحث يرى أنّ الأسلوب عند ابن قتيبة يُبنى على تنوّع طرق التعبير واختلافها( تفاوتها) وفق مقتضيات الأحوال ، ويرى أنّ هذا دليل ثراء الأسلوب وغناه.

---

(١) قراءة النص دراسة في الموروث النقدي للدكتور أحمد علي يوسف( ط مكتبة الأنجلو المصرية د.ط.ت). ص ١٤٥.

فالتفاوت حينئذ يعني اختلاف طرق التعبير وتنوعها.

وهذا بخلاف التّفاوت عند الباقلاني، الذي اعتبره مثلبةً للأسلوب ؛لأنّه حينئذ يعني عدم استواء بيان الأسلوب، على ضرب واحد ومدرجة واحدة، بحيث يعلو حيناً ويتدنّى حيناً .

ومن هنا فإنّ التّفاوت عند ابن قتيبة مختلفٌ عن التّفاوت عند الباقلاني، هو عند الأول اختلاف طرائق التعبير، وهو ميزة، وعند الثّاني عدم استواء الأسلوب في بلاغته ، وهو مثلبة.

وبعد هذه الرّحلة الطّويلة التي عشنا فيها مع عَالِمَيْن: أحدهما يرى بتفاوت بلاغة القرآن وفصاحته، وهو يُمثِّل وجهةً من النّظر في كتاب الله ، ومفهوماً- بغضّ النّظر عن صحته أو خطئه- وقع لبعض النّاظرين في القرآن، وهم مجموعة من العلماء- لهم قدرهم- على مختلف عصور التّفكير الإسلامي. وثانيهما: يرى باستواء بلاغة القرآن وفصاحته ، ويعتبر ذلك وجهاً من وجوه بلاغته المعجزة، وهو يُمثّل وجهة نظر جمهور أهل العلم من البلاغيين القدماء والمُحدَثِين، والمفسرين، وعلماء الإعجاز، وعلماء علوم القرآن، و علماء الأصول، والمتكلمين وغيرهم ممن تعرّض لإعجاز القرآن وبلاغته.

وقد عرضنا لصنيع كلا الرّجلين، وأدلتهما، وبيّنا قوتها أو ضعفها.

## فهل القرآن مستو أو متفاوت ؟

أرى أنّ الجواب الذي تستريح له النّفس، وينشرح له الصّدر، هو كون القرآن المجيد مستوياً في فصاحته وبلاغته؛ وذلك لأنّ كلَّ ما فيه من حروف، وكلمات، وآيات، وسور على درجةٍ واحدةٍ، في الفصاحة والبلاغة والإعجاز، لا تفاوت فيه ولا اختلاف ولا اضطراب، و وصف البيان القرآني بالاستواء ، هو الذي يليق بجلال كلام الله سبحانه وتعالى، ويتناسب مع إعجازه الذي يقتضي، أن تُوضع حروفه قبل كلماته وضعاً معجزاً ، لا تطيقه البشر مهما أوتوا من فصاحة وبلاغة، وأن يحوز على محاسن ليست في متناول البشر، وإن كانت حروفه من حروفهم، وكلماته من كلامهم ، وطرقه في التّعبير هي طرقهم.

كما يقتضي أن يسلم من أيّ خللٍ أو وعيبٍ (أصل الفصاحة)، ومن التّفاوت في درجات الفصاحة حتى يتحقق الإعجاز.

ودَعْ عَنْكَ قول من يقول: إنّه متفاوتٌ؛ لأنّ كلامهم متفاوتٌ، وهو يسير على نمط كلامهم؛ وذلك لأنّ التّفاوت ليس طريقاً من طرائقهم في الكلام، وإنّما هو عيبٌ من عيوب كلامهم ، ونَفَسٌ من أنفاس بشريتهم، التي تُصاب بالانقطاع والفتور والضّعف.

فكيف يأتي بعيبٍ من عيوب كلامهم ثم يتحدّاهم ببلاغته

وفصاحته؟! أين الإعجاز إذا؟!

ودَعْ عَنْكَ أيضاً قول من يقول : إنّه متفاوتٌ، وهو بتفاوته يُرخي العنان لهم ، ليُوهمهم القدرة على المعارضة، ثم يُلجئهم إلى درجةٍ يتجلّى فيها عجزهم وإعجازه، أي أنّه يهبط بمستواه البياني؛ ليُمكّنهم من القدرة على المعارضة، ثم يرتفع إلى درجةٍ لا يستطيعون فيها المجاراة؛ فيتحقق الإعجاز، فيُسلّمون به.

فهذا القول على وجاهته من النّاحية العقلية، لا يُصدّقه واقع القرآن، بل يُكذّبه، وأقول لأصحابه: دلّوني على آيةٍ واحدةٍ في كتاب الله (جل وعلا) تدنّى مستواها البياني ، فلَمْ تُناسب مقامها، أولم تنسجم مع سياقها، أولم تُؤدِ غرضها، أولم تّوفِّ معناها. بل دلُّوني على تركيبٍ واحدٍ ركيك، وكلمةٍ واحدةٍ قلقة أو نابية، يجوز أن يسدّ غيرها مَسدها.

ثمّ إنْ جاز أن يُقال هذا الكلام في سورة طويلة، كسورة البقرة أو غيرها من السّور الطّوال، فكيف يُقال في سورةٍ قصيرةٍ كسورة الكوثر، والله قد تحدّى بمطلق سورة، فيستوي في التّحدي والإعجاز سورة الكوثر مع سورة البقرة- وإن كانت تكاليف التّحدي والإعجاز في سورة البقرة أكثر؟!.

إنّ التّحدي والإعجاز يرفضان هذا القول تماماً، ويُوجبان توالي فصاحة ألفاظه، وصحة معانية، واستواء بلاغته . واسمع إلى ابن عطية

وهو يقول: "ووجه إعجازه أنّ الله تعالى قد أحاط بكل شيء علماً، وأحاط بالكلام كلّه علماً؛ فإذا ترتبّت اللفظة من القرآن ، علم بإحاطته أيّ لفظة تصلح أنّ تلي الأولى، وتبين المعنى بعد المعنى، ثم كذلك من أوّل القرآن إلى آخره، والبشر معهم الجهل والنسيان والذّهول، ومعلوم ضرورة أن بشراً لم يكن قط محيطاً.

فبهذا جاء نظم القرآن في الغاية القصوى من الفصاحة...ويظهر لك قصور البشر في أنّ الفصيح منهم يصنع خطبة أو قصيدة، يستفرغ فيها جهده، ثمّ لا يزال يُنقحها حولاً كاملاً، ثم تعطى لآخر نظيره؛ فيأخذها بقريحةٍ جامة؛ فيُبدّل فيها ويُنقّح، ثمّ لا تزال كذلك فيها مواضع للنّظر والبدل، وكتاب الله لو نزعتَ منه لفظة، ثم أُدير لسان العرب، في أن يُوجد أحسن منها ،لم يوجد ،ونحن تبين لنا البراعةُ في أكثره، ويخفى علينا وجهها في مواضع؛ لقصورنا عن مرتبة العرب يومئذ في سلامة الذوق، وجودة القريحة وميز الكلام "(١)

فهو رحمه الله وأثابه يرى أنّ القرآن معجز ببلاغته ، ومعنى إعجازه أنّ كلّ لفظةٍ وُضعت بحكمة، وكلّ معنى جاء بدقة، وهذا في القرآن كله؛ وذلك لأنّه جاء بعلم الله ،أما البيان البشري ، فإنّه مظنة

---

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد (ط. دار الكتب العلمية .بيروت. لبنان.ط. أولى ١٤١٣هـ= ١٩٩٣م) ج ١ ص ٥٢.

التّفاوت والقصور، ثم بيّن ابن عطية أنّ هذه البلاغة (الإعجاز) قد تظهر لنا في أكثره، وقد يخفى علينا وجهها في بعضه، والسّبب في ذلك لا يعود إليه هو – بمعنى أنّ هذه الآيات التي خفي علينا فيها وجه البلاغة، ليست بها بلاغة – وإنّما يعود إلينا نحن بسبب فساد أذواقنا.

ودَعْ عَنْكَ أيضاً قول من يقول إنّ القرآن متفاوتٌ، وتفاوته ليس لعدم قدرة الله سبحانه على الإتيان به في أعلى طبقة، وإنّما لحكمةٍ، مثل أن يكون المخاطب عاجزاً عن فهمه؛ وذلك لأنّ الغاية من القرآن المخاطب– من الإنس والجن– والله سبحانه قد فصّله لهم تفصيلاً، اقرأ إن شئت قوله تعالى: ﴿حم۞ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ۞ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾(١)

فكيف يعجز المخاطب عن فهمه والله قد أنزله له؟وكيف يعجز المخاطب عن إدراك بلاغته والله قد تحدّاه بها؟ وإذا عجز عن إدراك بعضه فكيف أدرك الباقي؟ وإذا عجز بعضنا فأين الراسخون في العلم؟

ودَعْ عَنْكَ أيضاً قول من يقول: إنّه متفاوت ولا غضاضة في ذلك؛ لأنه أبلغ من التّوراة والإنجيل والزبور والجميع كلام الله ولا ينكر أحد ذلك؛ وذلك لأنّ هذه الكتب ليست معجزة، ولم يتحدّ الله بها.

---

(١) فصلت/١-٣.

وما كلُّ مخضوبِ البنان بثينةٌ ولا كلُّ مصقول الحديد يماني

وأخيراً، أُنبّه إلى أنّ القول باستواء بيان القرآن، يحفظ وحدة هذا الكتاب العزيز، ويجعل منه آيةً واحدةً من آيات الله، تشيع الحكمة من كلّ جانب من جوانبها، وتتفجر ينابيع الهدى من كل جهة من جهاتها، ويُطلّ الإعجاز من كلّ كلمة من كلماتها، بل من كل حرف من حروفها.

وأما القول بتفاوته، فمن شأنه أن يُمزّق وحدته، وأن يُوجّه إليه سهام الطّعن- كما رأينا في المقدمة- وأن يُغري به سفهاء النّاس؛ لأنّه يُوهم بأنّ بعضه معجزٌ وبعضه ممكنٌ؛ ومن ثمّ فإنّه على هؤلاء الذين يقولون بتفاوت بيان القرآن- إذا كانوا يؤمنون بإعجازه- أن يجعلوه على درجةٍ واحدةٍ من البلاغة؛ لأن هذا الأفضل لهم والأليق بكتاب الله .

يقول الباقلاني: "ونظم القرآن في مؤتلفه ومختلفه، وفي فصله ووصله، وافتتاحه واختتامه، وفي كل نهج يسلكه، وطريق يأخذ فيه، وباب يتهجم عليه، ووجه يَؤُمُّه، على ما وصفه الله تعالى به – لا يتفاوت ،كما قال :﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً﴾[1]. ولا يخرج عن تشابهه وتماثله، كما قال: ﴿قُرآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ

---

(١) النساء /٨٢.

ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾[١]. وكما قال: ﴿كِتَاباً مُّتَشَابِهاً﴾ ولا يخرج عن إبانته، كما قال:﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾[٢].

وغيره من الكلام كثير التلوّن، دائم التغيّر والتنكّر، يقف بك على بديع مستحسَن، ويعقبه بقبيح مستهجَن، ويطلع عليك بوجه الحسناء، ثم يعرض للهجر بخد القبيحة الشَّوْهَاء، ويأتيك باللفظة المستنكرَة بين الكلمات التي هي كاللآلئ الزُّهْر.

وقد يأتيك باللفظة الحسنة بين الكلمات البُهْم، وقد يقع إليك منه الكلام المُتَبَّجُ – المضطرب– والنّظم المشوّش والحديث المشوّه . وقد تجد منه ما لا يتناسب ولا يتشابه، ولا يتألف ولا يتماثل"[٣].

كما أُنبّه إلى أمرين آخرين، ينبغي أن يقف عليهما القارئ ؛ حتى يزداد ثقة ويقيناً بهذا القول الذي ذهبتُ إليه مع المدقِّقين من أهل العلم.

الأوّل: قد يقول قائل: قُلْتَ ما قُلْتَ ،ونحن نسلِّم لكَ ولمن ذهبتَ معهم نظرياً بهذا القول، لكنّنا نجد في آياتٍ من القرآن، ما يكون نظمه بخلاف ما وصفتَ؛ فلا يعتمد الكلام أكثر من التّعاطف و النّسق، ولا

---

(١)الزمر/٢٨.

(٢) الشعراء/١٩٥.

(٣) إعجاز القرآن ص ٢٠٦.

تتميز الكلمات بوجهٍ من البراعة؟

وذلك نحو قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاَتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلاَئِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلاَبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً﴾ (١) ، وقوله: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً﴾(٢).

أقول لهذا: ينبغي أنْ تعلم أنّ بلاغة الكلام ليست في كثرة الخصوصيات ووفرتها، وإنّما في مطابقة الكلام لمقامه، وانسجامه مع سياقه، ووفائه بمعناه، و أدائه لغرضه، وحسن نظمه، وفصاحة ألفاظه، ودقة معانيه، وصحتها، و ترتيبها، وغيرها.

وانظر إلى هاتين الآتين في ضوء ذلك، وسوف يطلُّ عليك

---

(١) النساء/٢٣.

(٢) النساء ١٦٣.

الإعجاز من عليائه، وقد تُدرك منه سرّاً، وتغيب عنك أسرار، وغيبة هذه الأسرار لا تعني عدم وجودها، إنّما هي كامنة فيه، تتجلى بقَدَر وحسابٍ.

يقول الباقلاني عن الآية الأولى: "الذي يُعتبر في نحو ذلك تنزيل الخطاب، وظهور الحكمة في التّرتيب والمعنى، وذلك حاصل في هذه الآية – إنْ تأملتَ.

ألا ترى أنّه بدأ بذكر الأُمّ؛ لعظم حرمتها وإدلائها بنفسها، ومكان بَعْضِيَّتِها فهي أصل لكلّ من يُدْلي بنفسه منهنّ، ولأنّه ليس في ذوات الأنسَاب أقربُ منها.

ولما جاء إلى ذوات الأسباب، ألحق بها حُكْمَ الأُمّ من الرّضاع؛ لأنّ اللحم ينشره اللبن بما يَغْذُوه، فيتحصّل بذلك أيضاً لها حكم البَعْضِيَّة، فنشر الحُرْمَةَ بهذا المعنى وألحقها بالوالدة .

وذكَرَ الأخوات من الرّضاعة، فنبَّه بها على كل من يُدْلي بغيرها، وجعلها تِلْوَ الأُمّ من الرّضاع .

والكلام في إظهار حِكَم هذه الآية وفوائدها يطول...فلم تنفكّ هذه الآية من الحكم التي تخْلُفُ حكمةَ الإعجاز في النّظم والتّأليف، والفائدة التي تنوب مناب العُدُول عن البراعة في وجه التّرْصِيفِ. فقد علم السائل أنّه لم يأت بشيءٍ، ولم يهتد للأغراض في دلالات الكلام ،وفوائده

ومتصرفاته، وفنونه ومتوجهاته.

وقد يتّفق في الشّعر ذكر الأسامي فيحسن موقعه؛ كقول أبي ذُؤاب الأسدي:

إنْ يَقْتُلُوكَ فَقَدْ ثَلَلْتَ عُرُوشَهُمْ بِعُتَيْبَةَ بنِ الحارثِ بنِ شهابِ
بأَشدهم كلَباً على أعدائِه وأَعزِّهم فَقْداً على الأَصحابِ

وقد يتّفق ذكر الأسامي؛ فيفسد النّظم ويقبح الوزن"[١].

فالباقلاني بيّن أنّ البلاغة في هذه الآية؛تكمن في تنزل الخطاب،وظهور الحكمة في الترتيب والمعنى،وبيّن مباينة البيان القرآني للبيان البشري في ذكر الأسماء؛إذ وضّح أنّ البشري قد يتفاوت.

الثّاني: أنّك حينما تُطالع كتب التّفسير تجد أنّ المفسّرين كثيراً ما يقولون: هذه الآية أبلغ من تلك، فما معنى كلمة"أبلغ" هذه؟ هل هي مستند للقول بالتفاوت؟

أقول لك: أعزّك الله، إنّ كلمة"أبلغ" هذه من المبالغة، وليست من البلاغة، وهذا الفهم ليس غريباً على البلاغيين، فهم يقولون: المجاز أبلغ من الحقيقة، والتّشبيه المؤكد أبلغ من المرسل، والتّشبيه المجمل أبلغ من

---

(١) إعجاز القرآن ص ٢٠٧.

المفصّل، وهناك التّشبيه البليغ، وهم يقصدون من كلّ ذلك المبالغة، وليست البلاغة؛ وذلك لأنّ البلاغة عندهم هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال، فكلّ تعبير في مقامه أبلغ من غيره، فالحقيقة في مقامها أبلغ من المجاز، والتشبيه المرسل في موضعه أبلغ من المؤكد وهكذا.

ومن ثمّ، فإنّ كلمة أبلغ عند المفسرين ليست مستنداً للقول بالتّفاوت؛ لأنّها من المبالغة، وليست من البلاغة، ولولا الإطالة لأتيتُ لك بنماذج كثيرة من كلامهم، وبيّنت لك ذلك. والله أعلم.

# الخاتمة

وبعد هذه الدراسة النّاقدة لهذه القضية، التي تتعلق ببيان كتاب الله الكريم و إعجازه، نصل إلى نهاية المطاف وخاتمة البحث؛ لنؤكّد- بإيجاز- على بعض النتائج:

- لم يظهر القول بتفاوت البيان القرآن إلا في القرن الثالث الهجري تقريباً، وأوّل من أُثر عنه الرّفض له ، هو أبو الحسن الأشعري(ت٣٢٤هـ).
- المقصود من التّفاوت عند العلماء الذين قالوا به، هو التّفاضل، وليس الاضطراب والتناقض والعيب.
- للتّفاوت في القرآن جهات متعددة؛ فهناك تفاضلٌ في الأجر والثّواب، وهناك تفاضلٌ باعتبار المعنى المُتحدَّث عنه أو فيه،وهناك تفاضلٌ باعتبار التّحدي بالإعجاز ، وهناك تفاضلٌ باعتبار بيانه وإعجازه، والوجوه الثّلاثة الأولى جائزة- وإنْ حَدَث فيها بعض الخلاف- والوجه الرّابع هو الذي طال فيه الأخذ والردّ؛ وجمهور أهل العلم لا يرى بجوازه ؛ لأنّه يُؤدي إلى مالا يليق بالله جل وعلا؛إذ القول بأنّ هذه الآية بليغة وغيرها أبلغ منها ، يعني أنّ البليغة لم تستوف كلّ الخصوصيات والاعتبارات، التي يقتضيها المقام والسياق

والغرض والمعنى، وهذا يؤدي إلى وصف القائل – تعالى عن ذلك علوّاً كبيراً– بالعجز وهو منزهٌ عن ذلك.

- هناك عدة عوامل ساعدت على نشأة القول بتفاوت البيان القرآني، هي: القول بالتّفاوت باعتبار الأجر والثّواب، والاعتزال، والقول بتفاوت النّظم، وحديث البلاغيين عن طبقات البلاغة. وبناءً على ذلك؛ فالاعتزال ليس كلّ شيءٍ في القضية، وإنمّا هو أحد العوامل، هذا في مجمل القضية، لكن على مستوى الأشخاص، فقد يكون الاعتزال السبب المباشر، كما كان عند ابن سنان وابن حزم.
- ابن سنان أوّل من صرّح من البلاغيين القدماء بالتّفاوت ، وأكثرهم أدلةً عليه ، ولهذا جعلته ممثلاً للقائلين بالتّفاوت، كما جعلت الباقلاني ممثلاً للقائلين بالاستواء؛ وذلك لأنّه أقوى من تكلّم عن استواء بلاغة القرآن وإعجازه.
- الدافع للقول بالتّفاوت عند ابن سنان هو القول بالصَّرفة، الذي هو مرتبط باعتزاله.
- ابن سنان يرى أنّ القرآن في طبقة كلام العرب؛ ومن ثمّ فهو متفاوتٌ في فصاحته وبلاغته، وهو يعني بالفصاحة وصف الألفاظ، وبالبلاغة وصف المعاني، وهذا هو مفهوم المتأخرين للكلمتين.
- الباقلاني أقام كتابه"إعجاز القرآن" على فكرة استواء القرآن، وبيّن أنّه مستو؛ على الرّغم من وجود كلّ الأسباب التي تُسلِم إلى

التّفاوت، و قد اعتبر ذلك وجهاً من وجوه البلاغة المعجزة،ووازن بين القرآن و بين كلام البشر، وبيّن إعجاز الأوّل باستوائه، وعجز الثّاني بتفاوته واضطرابه.

- تبيّن لنا من خلال البحث،أنّ القول باستواء بلاغة القرآن، هو قول جمهور العلماء [١] ، وهو القول الذي تستريح له نفس المؤمن؛ لأنّه يليق بجلال كتاب الله، ويتناسب مع القول بإعجازه، كما يحفظ عليه وحدته،أمّا القول بتفاوت البيان القرآني؛ فإنّه – على الرّغم من سلامة مقصد القائلين به– من شأنه أن يجلب على القرآن من الأوصاف مالا يليق به ، كما أنّه يتعارض مع القول بالإعجاز، وأخيراً يُغري سفهاء النّاس بالطّعن على القرآن، ولو بالباطل.
- الإعجاز يظهر في كثيرٍ من آيات القرآن، وقد يخفى في بعضها، على بعض النّاس لفساد أذواقهم وقلّة خبرتهم في ميز الكلام ، و خفاؤه لا يعني عدم الوجود ، وإنّما هو موجودٌ في كل حروف القرآن؛ فضلاً عن كلماته وآياته وسوره.

---

(١) المعجزة والإعجاز في القرآن الكريم للدكتور سعد الدين السيد صالح (ط دار المعـــارف ط ثانية ١٩٩٣م ) ص ٩٦.

- "أبلغ" في قول المفسرين: "هذه الآية أبلغ من تلك" من المبالغة وليست من البلاغة.
- من خلال معايشتي لهذا القضية بين العلماء، تبيّن لي أنّ الذين يقولون بتفاوت البيان القرآني، في فصاحته وبلاغته؛ يقصدون التّفاوت في درجات الفصاحة والبلاغة وليس في أصلهما، وذلك لأنّ الجميع متفق على أن القرآنّ الكريم في أعلى مراتب البلاغة.
- البلاغة لا تكمن في كثرة الاعتبارات و وفرة الخصوصيات،وإنّما في مطابقة الكلام لمقامه، ومناسبته لسياقه، وأدائه لمعناه، ووفائه بغرضه، ومن ثمّ فإنّ الآيات التي لا تعتمد أكثر من التّعاطف والنّسق، فإنّ بلاغتها تكمن في دقائق أخرى، تخلف دقائق خصوصيات النّظم كوجوه خطابها، وصحة معانيها وترتيبها، وتجد فيها من الإعجاز ما يبهر ويقهر.والله أعلم. وصلّى الله على سيدنا محمدٍ، وآله، وأصحابه، وسلّم تسليماً كثيراً.

# ثبت المصادر والمراجع


- الإتقان في علوم القرآن للسيوطي. ط. مكتبة نزار مصطفى الباز بمكة المكرمة. ط. أولى ١٤١٧هـ= ١٩٩٦م.
- الإعجاز البلاغي دراسة تحليلية لتراث أهل العلم للدكتور محمد محمد أبو موسى .مكتبة وهبة بالقاهرة. ط ثانية ١٤١٨هـ= ١٩٩٧م.
- إعجاز القرآن للباقلاني تحقيق السيد أحمد صقر .ط. دار المعارف .بمصر. ط. خامسة.
- إعجاز القرآن الكريم بالصّرفة(دراسة ناقدة) للدكتور محمود توفيق سعد. على شبكة المعلومات.
- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية لمصطفى صادق الرّافعي مراجعة درويش الجويدي. ط. المكتبة العصرية صيدا . بيروت ١٤٢٤هـ= ٢٠٠٤م.
- الإيضاح للخطيب القزويني (مطبوع مع البغية للشّيخ عبد المتعال الصعيدي ) .ط .مكتبة الآداب .ط السابعة عشر ١٤٢٦هـ= ٢٠٠٥م.

❖ البرهان في علوم القرآن للزّركشي تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. ط دار المعرفة .بيروت. ط. ثانية.

❖ بغية الإيضاح للشّيخ عبد المتعال الصّعيدي .ط .مكتبة الآداب. ط. السّابعة عشرة ١٤٢٦هـ= ٢٠٠٥م.

❖ البلاغة تطور وتاريخ للدّكتور شوقي ضيف .ط. دار المعارف بمصر . ط .سادسة.

❖ البلاغة العالية (علم المعاني) للشّيخ عبد المتعال الصعيدي تحقيق الدكتور عبد القادر حسين. ط. مكتبة الآداب. ط .ثانية ١٤١١هـ= ١٩٩١م.

❖ تاج العروس للزبيدي. ط دار الهداية.

❖ تجريد العلّامة البناني على مختصر السّعد. ط.محمد علي صبيح بمصر. ط. أولى. ١٣٤٧هـ.

❖ تفسير الطبري. ط. دار الكتب العلمية بيروت .ط .رابعة ١٤٢٦هـ=٢٠٠٥م.

❖ تقرير الشّمس للإنبابي على شرح سعد الدين التفتازاني لتلخيص المفتاح وحاشيته الشّهيرة بالتجريد في علم المعاني والبيان والبديع.ط . مطبعة السعادة بمصر ١٣٣٠هـ.

❖ تهذيب اللغة للأزهري تحقيق محمد عوض مرعب. ط. دار إحياء التراث العربي. بيروت. لبنان . ط. أولى٢٠٠١م.

❖ ثلاث رسائل في إعجاز القرآن (للرّماني والخطّابي وعبد القاهر الجرجاني تحقيق محمد خلف الله أحمد والدّكتور محمد زغلول سلام .ط .دار المعارف بمصر. ط. ثالثة.

❖ جواهر القرآن لأبي حامد الغزالي تحقيق محمد رشيد رضا القباني. دار إحياء العلوم. لبنان .ط. أولى ١٤٠٤هـ= ١٩٨٥م.

❖ حاشية عبد الحكيم على المطول. ط. الشّركة الصحافية العثمانية في استانبول–دار سعادات–.

❖ حاشية الدسوقي – ضمن شروح التلخيص – ط دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان.

❖ حول إعجاز القرآن للدكتور علي العماري هدية مجلة الأزهر شوال ١٤١٩هـ.

❖ دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني تحقيق الشيخ محمود محمد شاكر .ط .الهيئة المصرية العامة للكتاب ( مكتبة الأسرة ٢٠٠٠م).

❖ روح المعاني للألوسي. ط. دار الكتب العلمية .بيروت لبنان. ط ثانية ١٤٢٦.هـ=٢٠٠٥م.

❖ سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي تحقيق داود غطاشة الشّوابكة .ط .دار الفكرناشرون وموزعون .عمان .الأردن. ط أولى ١٤٢٧هـ= ٢٠٠٦م.

❖ سر ّالفصاحة لابن سنان الخفاجي دراسة وتحليل للدكتور عبد الرازق أبو زيد زايد. مكتبة الشباب بالإسكندرية بمصر ١٩٨٢م

❖ شروح التلخيص للتفتازاني واليعقوبي والسبكي والدُّسوقي.ط.دار الكتب العلمية.بيروت. لبنان.

❖ صحيح مسلم تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي .ط .دار إحياء التّراث العربي. بيروت. لبنان.

❖ العقيدة والشريعة في الإسلام( تاريخ التّطور العقدي والتّشريعي في الدين الإسلامي) لجُولْدْ تْسِيهر ترجمة وتعليق د محمد يوسف موسى والدّكتور علي حسن عبد القادر والأستاذ عبد العزيز عبد الحق . الطبعة الثّانية. دار الكتب الحديثة بمصر ومكتبة المثنى ببغداد.

❖ الفِصَل في الملل والأهواء والنّحل لابن حزم الأندلسي الظاهري تحقيق الدكتور محمد إبراهيم نصير والدكتور عبد الرحمن عميرة. ط. دار الجيل. بيروت . لبنان.

❖ فكرة إعجاز القرآن من البعثة النبوية إلى عصرنا الحاضر للدكتور نعيم الحمصي. ط. مؤسسة الرسالة .بيروت. لبنان. ط ثانية ١٤٠٠هـ= ١٩٨٠م .

❖ فوائد مشكل القرآن للعزّ بن عبد السلام تحقيق الدكتور سيد رضوان علي " الندوي" دار الشروق للنشر والتوزيع والطباعة.ط. أولى ١٣٨٧هـ= ١٩٦٧م.

❖ القاموس المحيط للفيروز آبادي، دار الجيل، بيروت لبنان.

❖ قراءة النّص دراسة في الموروث النّقدي للدكتور أحمد علي يوسف. ط مكتبة الأنجلو المصرية.

❖ لسان العرب لابن منظور ط دار المعارف بمصر.

❖ مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية جمع وترتيب عبد الرحمن بن قاسم العاصمي النجدي الحنبلي ط دار عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع بالرياض١٤١٢هـ= ١٩٩١م.

❖ المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد.ط. دار الكتب العلمية .بيروت. لبنان.ط. أولى١٤١٣هـ= ١٩٩٣م.

❖ المحكم والمحيط الأعظم لابن سيدة تحقيق عبد الحميد هنداوي .ط دار الكتب العلمية .بيروت .لبنان. ط .أولى ٢٠٠٠م.

❖ مختار الصحاح لأبي بكر الرازي تحقيق محمود طاهر.مكتبة لبنان ناشرون ١٤١٥هـ= ١٩٩٥م.

❖ المدخل إلى علم بلاغة العربية للدكتور محمود توفيق سعد . شبكة المعلومات.

❖ المطول لسعد الدين التفتازاني. مطبعة أحمد كامل ١٣٣٠هـ.

❖ المعجزة والإعجاز في القرآن الكريم للدكتور سعد الدين السيد صالح ط دار المعارف ط ثانية ١٩٩٣م

❖ معجم الأدباء لياقوت الحموي .ط. دار الكتب العلمية .بيروت .ط. أولى ١٤١١هـ= ١٩٩١م.

❖ مفتاح العلوم للسكاكي .ط .شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر. ط ثانية. ١٤١١هـ=١٩٩٠م.

❖ المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني تحقيق محمد سيد كيلاني. ط .دار المعرفة. بيروت. لبنان .

❖ مقاييس اللغة لابن فارس تحقيق عبد السلام محمد هارون .ط .دار الجيل .بيروت. لبنان. ط. ثانية ١٤٢٠هـ= ١٩٩٩م.

❖ مقتضى الحال بين البلاغة القديمة والنقد الحديث للدكتور إبراهيم عبد الله الخولي .ط. دار البصائر بالقاهرة .ط .أولى ١٤٢٨هـ= ٢٠٠٧م.

❖ مناهج التحليل البلاغي عند علماء الإعجاز للدكتور عبد الله بانقيب .ط. دار كنوز إشبيليا. ط. أولى ١٤٣٠هـ=٢٠٠٩م .

❖ منهج الزمخشري في تفسير القرآن للدكتور مصطفى الصاوي الجويني. ط. دار المعارف. ط. ثالثة.

❖ مواهب الفتاح لابن يعقوب المغربي – ضمن شروح التلخيص– ط دار الكتب العلمية.بيروت.

❖ نظرية العلاقات أو النظم بين عبد القاهر والنقد الغربي الحديث للدكتور محمد نايل. ط .دار الطباعة المحمدية بالأزهر بالقاهرة ١٩٦٤م .

❖ النكت في إعجاز القرآن للرّماني – ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن – تحقيق محمد خلف الله أحمد والدكتور محمد زغلول سلام . ط .دار المعارف ط ثالثة.

❖ نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز للرّازي تحقيق الدكتور نصر الله حاجي مفتي أوغلى. ط .دار صادر . بيروت. لبنان. الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ= ٢٠٠٤م.